



أمير تاج السرّ العطر الفرنسي

رواية

العطر الفرنسي

رواية

أمير تاج السر



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

جميع الحقوق محفوظة للناسر

الدار العربية للعلوم ناسرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص. ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناسر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناسرون ش.م.ل

للتصديق وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (11-961+)

الطبعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (11-961+)

الفصل الأول

حين يأتي خبر ما

لم يكن خيراً عادياً، ذلك الذي التقطه علي جرجار مصادفة، وأسرع به راكضاً إلى حي غائب الشعبي في أطراف المدينة حيث يعيش. وبالرغم من أن الخبر في حد ذاته كان مقتضباً وغامضاً وبلا أي علامات إرشادية، إلا أن خيالات جرجار كانت حاضرة دائماً، ومستعدة لتطويره في أي وقت، إلى خبر ذي جدوى وتأثير.

- ستأتي الفرنسية كاتيا كادويلي في الأيام القادمة، للإقامة معكم في الحي فترة من الوقت، ضمن دراسة عالمية.. استضيفوها في أي مكان بينكم، وعيشوا حياتكم كما هي.

هذا بالضبط ما ذكره المسؤول الحكومي مبروك، حين التقى علي جرجار في مبنى محافظة المدينة التي اعتاد على زيارتها من حين لآخر بهدف وبلا هدف.. يعرفه المسؤول منذ أكثر من أربعين عاماً، حين تواجهها مرة في مباراة كرة قدم خشنة، جرت في زقاق موحل داخل حي مغبر، وانكسرت فيها قدم الحكومي آنذاك.. ناداه وهو يوشك أن يعد سريرة بائعة الشاي المرابطة أمام المحافظة، بالزواج كما وعد العشرات من قبلها..

يا جرجار.. يا علي..

توقف بوعده للبائعة عند قيمة المهر، وعدد الجرامات في الخاتم الذي سترتيديه يوم الرفاف، وتبع المسؤول الحكومي إلى داخل المبنى..

- وما هي تلك الدراسة العالمية بالضبط؟ ولماذا حي غائب بالذات من دون أحياء الكرة الأرضية؟

- لا ندري شيئاً في الحقيقة.. هذا ما وصلنا حتى الآن.

- ومتى ستصل تلك الفرنسية؟
- أيضاً لا تدري.. ربما في الأيام أو الأسابيع المقبلة.
- وما هو المطلوب من سكان الحي؟
- لا شيء محدد.. عيشوا حياتكم كما أخبرتك، فقط انتبهوا أن بينكم غريباً.

انصرف المسؤول الحكومي إلى أشغاله، تاركاً علي جرجار حائراً.. في أثناء سكناه الطويلة في حي غائب الذي حاولت السلطة مراراً أن تسميه حي النور، أو حي زهر الروضة أو حتى حي حاضر، وأخفقت، استضافوا مئات الغرباء، بعضهم جاء ضيفاً على أحد يعرفه أو يمت إليه بصلة القرابة، بعضهم اختفاء من جرم ارتكب في مكان بعيد، بعضهم طمعاً في أرض يمتلكها بوضع اليد، أو امرأة يشتهيها، وبعضهم لا شيء أكثر من كوفهم غرباء يستضيفهم حي فقير. ومهما كانت تلك الأفواج الغريبة ومهما كثرت أعدادها وتشعبت، إلا أنها كلها من لحم الوطن. قد تكون من الشمال أو الجنوب، أو الوسط.. لكنّها في النهاية تتبع لذلك الجسد الوطني العريض.. ويستطيع حي غائب أن يكلمها وتكلمه في أي لحظة. لكن الآن تأتي فرنسية من مكان بعيد، وثمة دراسة عالمية غير معروف أصلها وفصلها.. و"عيشوا حياتكم كما هي"، "فقط انتبهوا".. بالتأكيد لن يستوعب سكان الحي كل تلك الغوامض حين ينقلها لهم كما سمعها، لكنه سيهرّها، ويملّحها، ويطعمها تفاصيل أخرى من عنده، قبل أن يلقي بها في أذن المايكروفون، وهو الاسم الذي كان يطلقه على حكيم النبوي، مدرس التاريخ السابق، وأحد سكان الحي المهمين، والذي بدوره قد يضيف إليها بهاراً آخر قبل أن يثثها في الحي، كما اعتاد في كل مرة يأتي فيها خبر جديد. خرج جرجار من باب المحافظة مسرعاً لدرجة أنه نسي أن

يعود إلى سريرة بائعة الشاي، يكمل معها ترتيبات الزواج المزعوم، وأن يشتم ماسح أحذية صبيًا هزأ بجذائه المتسخ أمام الناس.

كان علي جرجار واحداً من أكثر سكان حي غائب إثارة للجدل، يأتي في المرتبة الثالثة بعد الدقيل الذي عاد إلى ريفه البعيد في الشمال، بعد أن عاش في الحي، وعربد في المدينة لثمانية وستين عاماً، وركشة بائع الثلج في موسم الصيف، الذي استولى مرة على لقب ملوكي يخلص واحداً من مواطني إحدى دول الجوار، وظل يستخدمه في المدينة زهاء الثلاثة أعوام لدى النساء والمسؤولين، وحتى لدى الخفراء الذين يجرسون البوابات، إلى أن سمع به صاحب اللقب الأصلي، فجاء ليعريه في المدينة كلها، ومن ثم ليخسر خمس سنوات من عمره في السجن.

كان علي جرجار طويلاً، ممتلئاً، قليل شعر الرأس وبلا شارين، ولد ونشأ في الحي نفسه، وعمل مراقباً لصيانة القاطرات في السكة الحديد، إلى أن اتمارت تلك الأخيرة بسبب الإهمال ونسيان الحكومات المتعاقبة لأمرها. وكان يباهي دائماً بمقاومته لمرض الملاريا وحمى التيفود والنزلات المعوية الموسمية، التي تصيب حتى زعماء البلاد، وبقائه عازباً بلا زواج، لكن عريساً دائماً لكل الفتيات منذ شبابه المبكر إلى فتيات يومه الحاضر، وانتمائه إلى حزب "وطنك الكبير" الذي كان في الواقع حزباً مغموراً جداً، لا يضم في عضويته سوى ثلاثة أشخاص، هم: مؤسسسه الرحالة المقعد حاكم عذابو، وعلي جرجار، وواحدة قيل إن اسمها سعاد سعد، لم يرها أو يعرف عنها أحد شيئاً. كان يعشق نسج الخيل، وتخليد ذكرى الموتى المهمين في نظره، بقرضهم أسماء لمواليد الحي وشوارعه المغيرة، وابتدأ من سن مبكرة في تدريب مثنائه على عدم حبس التبول، ورثتيه على عدم السعال أبداً، وذاكرته على عدم الخرف

حتى لو بلغت سنه المئة.. وكانت أعظم أعماله على الإطلاق، تلك الصيحة التي تنادي بحرية التخيل لدى الناس، والتي أطلقها من حي غائب ذات مساء، لتصل فيما بعد إلى كل أقاليم البلاد، ويطلق عليها الباحثون في السياسة والتاريخ اسم صيحة جرجار. لكن ذلك لم يعد عليه بمال أو جاه.

اختفى علي جرجار في لجة الحافلة المتجهة إلى الحي البعيد مارة بأحياء أخرى في طريقها، كان في داخلها الكثيرون ممن يعرفهم، ومن لا يعرفهم، لكنه كان في الواقع بعيداً عن جو الحافلة، غارقاً في نصه الجديد، نص الفرنسية ذات المجيء الغامض التي التقط خبرها للتو. كان يمحو في ذهنه ويضيف، يعدل ويلغي التعديل. أضاف "باريس" مرة مدينة ذات جاذبية وخصر دقيق، عاد ومحاه مخافة أن يظنها البعض امرأة فيشتهوها. جعل كاتيا كادويلي الفرنسية فتاة في العشرين من عمرها، ثم استغرب كيف يجعل فتاة في العشرين تأتي لتقيم في تلك الفوضى.. وضع حول عنقها عقداً من الماس، في شقوق أذنيها أقراطاً مذهبة، ثم خلع زينتها خوفاً من اللصوص، الذين قد يسرقون حليها، في حقائبها بعض الصندل، ودهن العود وعباءة سوداء ذات حواف، ثم عاد وتذكر عطراً كرنفالياً اسمه موج، وقمصاناً بلا أكمام، وتنانير حتى الركبتين وبناطيل للجينز رأى السائحات الأوروبيات يرتدينها في وسط المدينة. أسكنها بيتاً عدة في الحي، وسحبها منها بحجة فجاجة الجيران وتطفلهم على خصوصياتها، وكم من مرة أجلسها على كرسي أو سرير من الجبال، ثم أوقفها على قدميها مخافة أن تتسخ ثيابها. وحين اقتربت الحافلة التي يستقلها، من حي غائب، كان ثمة سيناريو مقبول بالنسبة إليه قد كتب:

"ستزورنا في القريب العاجل، النجمة الفرنسية كاتيا كادويلي،
لتجرب الحياة الشعبية ووطننا، وذلك بخصوص مشروع عالمي كبير
يخص الدعاية والإعلان تقوم بالمشاركة فيه، ثم تعود بعد ذلك إلى
بلادها، وتذكرنا بالخير".

كانت عبارة "تذكرنا بالخير" قد جاءت بعد نحت شديد للذهن،
وليست مصادفة. إنها تعني أشياء عديدة هامة مثل أن تجعلنا مشاهير في
العالم كله بتوثيقنا في شريط تسجيلي.. ترسل لنا المال اللازم لتطوير
الحي ودفن بالوعاته وحفره.. تعني بكلابنا وقططنا الضالة. تطلب
بعضنا للهجرة والإقامة معها في باريس، وربما تحب أحدنا بجنون،
وتعرض عليه الزواج. كانت "تحب أحدنا بجنون، وتعرض عليه الزواج"
بالذات تخصه هو شخصياً من دون سائر سكان الحي، فقد كان علي
جرجار برغم وصوله لسن تسمح لـ "تنقو" بائع الآيس كريم، وعمر
الحلاق، وصليحة الممرضة في المستشفى، أن ينادوه يا جدي، ما يزال
مقتنعاً بأنه صاحب جاذبية لا تقاوم، ويمكن أن يكون العريس المناسب،
حتى لرقية الطالبة في الصف الثالث الابتدائي.. وبنات صفها كلهن.

كان بيته في وسط الحي تقريباً، بيتاً كسائر البيوت، نصفه من
طين ونصفه من خشب مشقق. الذين أنشأوا الحي فيما مضى، أنشأوه
هكذا.. كانوا واعين سطوة الفقر على حياتهم، ومهووسين بغرسه في
النطف حتى لا يموت أبداً، حتى اسم غائب الذي يعني عدم الوجود أو
الانمحاء، لم يأت من فراغ أو سذاجة، إنه الاسم الذي اتفق عليه
الجميع، وهم يضعون اللبنات الأولى في بناء الحي. وحين جاءت أجيال
بعد ذلك، طرقت التعليم، أو عرفت سكة السفر إلى بلاد الخليج
العربي وأوروبا، وعادت. لم تحاول أن ترمم حائطاً مشقوقاً، أو
تدفن حفرة يمكن أن تبتلع أحداً، أو حتى تمد يد المساعدة لطريق معوج،

ليستقيم. عادت لتعيش الحياة كما عرفتھا، ونشأت علیھا. فتح باب بيته فأحدث ذلك الصرير المزعج، الذي كان أيضاً جزءاً من ثقافة أبواب البيوت في الحي.. لا باب يفتح بلا صرير، والباب الذي يفتح هادئاً وسلساً، لا يحترمه أحد، ولا يطرق حتى في مناسبات الأعياد التي تعد مواسم تطرق فيها الأبواب كلها. كانت تلك ساعته اليومية في تدريب ذهنه على عدم الخرف ليصل إلى سن المئة بلا مشاكل، لتدريب رثيته على عدم السعال، أو الانزمام أمام الإنفلونزا، ومثالثته على عدم حبس التبول الذي لن ينجر منه إذا ما تركها بلا تدريب. ألغى كل ذلك وخرج مرة أخرى من البيت.. سيذهب إلى حكيم المايكرفون ويخبره بذلك الخبر الغريب.

كانت السادسة صباحاً في الواقع، ساعة غريبة.. تلك التي اختارها حكيم النبوي، لتكون وقتاً لاجتماعات مكثفة ستجرى في بيته باستمرار، بعد أن انتهك جرجار قيلولته المقدسة، وأخبره بخبر الفرنسية القادمة للسكنى في حي غائب. إنها الساعة التي حدثت فيها ثورات عظيمة، وانقلابات عسكرية طائشة أيضاً. الساعة التي تصفو فيها الأذهان حتى من جريرة التذكر.. الساعة التي يشاهد فيها موسى خاطر، الذي كان يعمل في إحدى الدوائر الأمنية ويتخذ الحي مادة لتقاريره اليومية، راکضاً في الأزقة والحفر، في رياضة عنيفة تلهيه عن قراءة النصوص المكتوبة والمسموعة، والمرسومة على الوجوه. والساعة التي انتحر فيها الرومانسي الرقيق طه أيوب، منذ أكثر من سبع سنوات حين اكتشف فجأة أن عرق الأنثى لا يختلف أبداً عن عرق الذكر في جميع مراحل تكوينه وتصيبه على الأجساد. في ذهن النبوي خطط وليدة قد تنمو إلى خطط كبيرة، وقد تموت لتأتي غيرها، وفي ذهنه الآن خمسة أشخاص انتقاهم بعناية ليقاسمهم تلك الخطط. هو باعتباره

الرئيس غير الرسمي للحى، لأن الأحياء كانت بلا رؤساء رسميين، والوحيد القادر على نظم قصائد الشعر ذات المدح والمجاء، والأهم من ذلك تاريخه الطويل في الثروة حين كان طفلاً ثرثاراً، ومراهقاً يكتب رسائل الحب الثرثارة، ومعلماً لمادة التاريخ ذات الثروة في المدارس الابتدائية. علي جرجار باعتباره ناقل الخبر، ومواطناً نشطاً في كل مرحلة من مراحل تأرجح الحى، وحلقة للوصل يمكنها أن تضفر خيوطاً عديدة قد تترنح في وسطها سيرة الفرنسية، قبل أن تخط بسلام في حى غائب.

منعم شعبة تاجر الشنطة المسافر دائماً، أو العائد من سفر، بوصفه واحداً من وجهاء الحى، وحيث محله التجاري، قطعاً يضم عطراً سلساً أو تمثالاً من البرونز يمكن أن يقدم هدية للضيافة، في احتفال قد يقيمه الحى يوماً ما. حليلة المرضعة قارئة الكف والمصائر، ما أهم تلك الحليلة، وما أهم قراءتها المستقبلية لكفوف أهل الحى في وجود كل تلك الغوامض.. تعيس الذي كان اسمه شاكر، واكتسب ذلك الاسم، لأنه الوحيد الذي لم يذق ماء زمزم، حين أرسله إلى الحى أحد المحسنين واصطف الناس طوابير شرهة ومجنونة لتذوقه أو الاغتسال به.. كان تعيس بالنسبة للنبي ذافائدة عظيمة، بالرغم من أنه لم يستطع تحديد تلك الفائدة إلى الآن، وأخيراً أيمن داؤود طالب الثانوي، الذي قطع شوطاً كبيراً في دروب التكنولوجيا، وعن طريق شبكة الإنترنت، التي يدخلها باستمرار في مقهى كريزي كافيه في السوق الكبير، يمكنه أن يقدم الكثير في ذلك الشأن.. قد يقترح البعض اسم سلافة الجميلة جداً، لأنها جميلة جداً، لكن لا محل لجمالها هنا.. قد يصرخ البعض: أين فرفور المغني، صاحب أوبريت العمامة، الذي يعمل على تلحينه منذ أكثر من أربعين عاماً ولم يكتمل حتى الآن؟. قد يحاول جرجار إضافة

واحدة من حبيباته الهامشيات، ليراقب نظراتها وابتهاماتها أثناء الاجتماعات. قد يصرخ أحدهم مطالباً بإشراك رجل دين ذي علم بالحلل والحرام، والأمور المشتبهات ليبدلي بفتواه إذا اقتضى الأمر، وقد يلغي موسى خاطر الأممي رياضته العنيفة ذات صباح، يخترق الاجتماعات، وربما يترأسها بلا استئذان.. لكن النبوي لن يلتفت إلى شيء.. ولن يضيف أو يحذف اسماً. كانت لجنة الستة التي كونها، ومررها بمرور من طرف لسانه لعلي جرجار، في رأيه، هي أفضل لجنة تكون لمناقشة أمر ما منذ استقلال البلاد.

التفت إلى علي جرجار، وفي صوت فخم يكاد يكون الشيء الوحيد المتبقي من فخامته القديمة بعد أن أقعده مرض الروماتيزم، قال:

- لقائنا غداً في السادسة صباحاً لمناقشة هذا الموضوع، ووضع خطط بشأنه.. لا تنس أن تحضر شايًا وزنجبيلًا.. وبعض البن.

لا يوجد اجتماع بلا صداع. والآن دعني أكمل قيلولتي.

ثم نادى أحد ولديه، زوده بأسماء الأربعة المطلوبين لاجتماع الغد، باعتباره هو وعلي جرجار حاضرين. أمره أن يطوف عليهم واحداً واحداً، وأن لا ينسى أن يغرس في كل حفرة تطأها قدماه، خبر الفرنسية القادمة إلى حي غائب المكتظ بأذان شرهة لامتصاص الأخبار.

خرج علي جرجار من عند النبوي متجهماً. لم يكن واثقاً من نزاهة النبوي حين تلقف الخبر، وحين كون لجنة غريبة لمتابعة تداعياته، وحين لم يكرمه حتى بكوب من الماء، وبالرغم من أنه جاء راضياً لإخباره كما تعود في كل مرة يصطاد فيها خبراً أثناء تجواله في المدينة. إلا أنه أحس هذه المرة بشيء من عدم الارتياح. اتجه إلى بيته مجدداً، فتح الباب ذا الصرير، واستلقى على كبة قديمة كانت جزءاً مهماً من إرث البيت.. أرخى مثانته وقبضها عشرين مرة، استنشق

ثمانين نفساً عميقاً، وأخرجها من دون أن يسعل. عاد بذاكرته أربعين عاماً إلى الوراء، تذكر ثوباً أحمر ممزقاً في وسطه، كانت ترتديه امرأة، وطقم شاي من الخزف الملون كان راكداً في رف ماء، وزجاجة من عطر الريفدور، سقطت على الأرض ذات يوم، وانكسرت.. وزهرة من زهور زنبق الصحارى، نبتت بقامة طفل ثم ييست.. تذكر أمه حين كانت تبكي بمناسبة وبلا مناسبة، وأباه حين كان يعشق نوم القيلولة حتى مات في إحدى القيلولات، وجارة اسمها سعيدة لم تكن أبداً سعيدة. أحس بمثانته قوية جداً، ورثتيه سلسيتين في التنفس، وذهنه قد صفا وعاد شاباً، فحضر واقفاً، خرج مرة أخرى إلى الطريق وخبر كاتيا القادمة من بعيد، لا يفارق تفكيره، ولا يدري لماذا لا يفارق تفكيره.

الفصل الثاني

القصة بلسان علي جرجار

-1-

خرجت من عند حكيم النبوي عصر ذلك اليوم، وفي جانبي
الأيسر بواذر لمغص ما، كانت في ذهني أشياء كثيرة أردت أن أنجزها
قبل أن تأتي الفرنسية كاتيا وتضخ ذلك العطر الذي أنتظره بشدة،
ولا أدري لماذا. أشياء تخصني، أشياء تخصها، وأشياء أخرى سأعثر
على الذين تخصهم بكل تأكيد.. لم أكن أعرف شيئاً عن مشروعها
العالمي، ولماذا اختارت له حياً غائباً حتى عن ذاكرة المدينة. لم يكن
يهمني بقدر وجهها الذي سأراه، عينيها اللتين قد تكونان زرقاوين،
أو سوداوين، أو بلون جديد لم تألفه عيوننا، لهجتها التي قد تكون
سليمة، أو مكسرة وبحاجة إلى ترميم، وقوامها الذي حتماً رأيت
مثله في شريط سينمائي في درجة الشعب الرخيصة، في سينما
الخواجة التي كنت أرتادها كلما مللت من عشق النساء المحليات:
حواء، أمونة، سليمة العرجاء، فاطمة، جواهر، زهورات.. بائعات
شاي الفقر، والخادومات، النازحات من إثيوبيا وتشاد، وتشرّد
الحروب الأهلية هنا وهناك، أولئك اللاتي لا يجدن حتى مساحيق
رامز الشعبية، ليصبغن بها وجوههن، ولا فساتين سلوى بوتيك التي
كانت عقاباً سافراً، لا أزياء يفخر بها الجسد حين يرتديها. وحين
كنت أتقدم زوجاً مخادعاً لإحداهن، أرى أسنانها تصطك، قدميها
ترتعشان بشدة، وثمة بؤر من الشبق تتراقص في رماد عينيها..
مسكينات.. مسكينات حقيقه.

كنت فقيراً جداً في الواقع، فقيراً وجزءاً من منظومة الحي نفسه، ومنظومات أحياء أخرى في المدينة لم أعش فيها من قبل لكنني عبرتها. صادقت فيها أشخاصاً يشبهونني وأشبههم.. وتلوّثت ببصاق مقرف كانت تفرزه بلا انقطاع. وحين احترق أحدهم مرة جيب قميصي، واستولى على حافظة نقودي، لم أوقفه، ظللت أضحك ليلتين متتاليتين، وأنا أنحيل لصاً بلا خيرة، ينقب في عشرين ثنية من ثنيات الحافظة القديمة، من دون أن يعثر على قرش. بالمقابل كانت لدي الذاكرة، تلك التي دربتها على أن تلمع، ولا ينطفئ لمعناها أبداً. أن تذكر غداء صنعته أمك من المرق والفاصوليا، وقدمته في وعاء مقشر من الطلس ذي حواف مذهبة، قبل خمسين عاماً، أن تذكر سراويل أليك التي ارتداها متسخة، وبلا كي ليأخذك إلى أول يوم دراسي في المدرسة الأولية، أن تذكر معلمك الذي سقطت إحدى أسنانه أثناء إلقائه الدرس، ومعلمك الذي مات بالزائدة الدودية. تذكر ذبابة تافهة حطت في كوب شايك قبل خمسة وخمسين عاماً، أن ينسأك حذاؤك القديم، يضيق عن قدميك، وأنت تذكر متى وكيف اشتريته؟ كانت ذاكرتي في الواقع، حقيقة معترفاً بها في الحي، ولدرجة أن الكثيرين كانوا يزودوني بتفاصيل أفراحهم أو أحزانهم التي يودون تذكرها في المستقبل البعيد، كي أعيدها لهم كاملة عند الطلب. حتى الجروح القديمة التي كانت تنتشر على جسدي من أيام عملي في صيانة القاطرات، كنت أعرفها، احتفظ في ذاكرتي بأسبابها وتواريخ ميلادها، ووفاتها حين تحولت إلى خدوش يابسة.

هكذا قيّمت نفسي، أعطيتها عدة نقاط إيجابية..

قيّمت حكيم النبوي أيضاً، باعتباره مطباً قد يعوق طريقي، أو شوكة ربما تعترض البلع في حلقي، ولا أدري لماذا فقزت مباشرة إلى

سليبياته كمرض السمعة، وروماتيزم المفاصل، وضغط الدم، متجاهلاً
شاعراً عريداً كان يسكن بداخله، وزعيماً يحترمه الناس ربما أكثر مما
يحترموني. لم أقيم أحداً آخر، لأن لا أحد آخر في رأيي، كان يستحق
التقييم.

أحسست ببوادر المغص تتلاشى، وعافية غريبة تدب في الجسد.
ماشياً في الحي من حفرة إلى حفرة، ومن ماء آسن إلى ماء آسن،
وعامراً بالأفكار نادتي إحداهن:
يا علي..

كانت سلافة الجميلة جداً، والتي كان صوتها في الماضي أغنية
أطرب لها.. و"يا علي" التي تنطقها من فم عسلي، ترجني من أقصاي
حتى أقصاي.. لم تكن من اللائي وعدن بالزواج وأخلفت، ولا من
اللائي سمحن لي أو لغيري من أشقياء الحي، بتعقب فتتهن إلى أكثر من
السلام ورد السلام.. كانت مثلي فقيرة لكنها تتفاني في هندمة زيتها،
وصياغة حياتها بما تستطيع ولا تستطيع. تعيش في بيت جدتها التي ربتها
منذ الصغر، وتعمل أحياناً في نقش الحناء للعرايس أو تفصيل الفساتين
لنساء الحي، على ماكينة سنجر عتيقة. وقد ذكرت إحدى نشرات
الأقاويل في الحي ذات مساء، علاقة تجمعها بواحد من تجار المدينة
الكبار، تمنحه الجسد، وتمنحها المال، لكن الخبر لم يؤكد أو ينفي بعد
ذلك.. وظلت الجميلة جداً، جميلة جداً في نظري ونظر الجميع.
يا جرجار..

ولم أطرب، استغربت لأنني لم أطرب، واستنتجت في نفس
اللحظة، أن خبر الموسيقى الفرنسية القادمة من بعيد، قد غير التدوق لا
بد..

- ما خبر تلك الفرنسية يا علي؟

تسألني الجميلة جداً. وبرغم نظراتي التي حاولت أن أدّقها بعنف في وجهها المزخرف بالألوان، لأستخرج خامات الهيام، لا يتحرك بداخلي شيء.. لا رعشة أمسكت باليدين، ولا اهتزاز أصاب مقدمة الأنف، لا دقات سريعة للقلب، ولا حتى قرقرة لغازات في البطن كانت تعرف المشاعر جيداً، وتساندها عند الضرورة.

- خير عادي يا سلافة.. تماماً كخير عودة الكوسا إلى سوق الخضراوات. واحتضار صرصار في أحد البيوت.

قلتها وأنا أنسحب من أمامها. وإذا صدقت آمالي ربما أنسحب قريباً من بذاءات حي غائب، والعشق المحلي إلى الأبد، لكن الجميلة ما تزال واقفة، وشديدة الهياج، وتشدني لأول مرة من ثيابي..
اخبرني يا علي.. اخبرني من فضلك.

ولم أخبرها.. ذلك ببساطة شديدة، أنني كنت لا أملك سوى ذلك الخبر الذي أحضرته غامضاً من المحافظة، وتركته لحكيم النبوي يلعب به، ويرميه إلى أقصى نقطة يمكنه الوصول إليها.

من حفرة في السطح إلى حفرة قد تبتلع حافلة براكها.. ومن ماء آسن إلى ماء آسن، وجدت وجهي ملتصقاً بباب أعرفه جيداً، باب حليلة قارئة المصائر، تلك التي اختارها حكيم النبوي ضلعاً في لجنته السداسية. يسمونها في الحي حليلة المرضعة، ولم أعرف لها أطفالاً أرضعتهم، ولا حتى ثدياً يمكن أن يكون قد أرضع أحداً. على الحائط أعلى الباب كتبت وبخط رديء، عبارة بالفحم، تقول "أعطني أعطك" وكانت بلا شك شعاراً ملائماً لواحدة مثل حليلة، قد يشدك إلى طرق الباب وقد يطردك. الشعار شدني، فطرقت وكانت المرة الأولى لي في طرق ذلك الباب الذي يكاد أهل الحي كلهم وكثير من الغرباء، قد طرقوه على مدى سنوات طويلة، لكنني لم أفعل.. خوفي من المصير دائماً ما يفر بي بعيداً.

علي جرجار؟..

تعكر وجه الإثيوبية زهورات أرتو التي كانت تعمل خادمة لدى قارئة المصائر منذ زمن طويل، وواحدة لم أدغدغ مشاعرها بطلب الزواج فقط، لكنني تركتها ترتدي فستاناً أبيض، وعقداً من القصدير أحضرته لها من توافه السوق. تركتها ترتدي حلماً دافئاً، ووهماً بحياة سعيدة بعيدة عن خدمة البيوت، وهربت في ليلة الزفاف.

- ماذا تريد يا جرجار؟.. ستموت قريباً بمرض الإيدز.. اذهب.

أرادت أن تغلق الباب في وجهي، أن تلغي قراءة المصير، ومنعتني بإزاحتها والدخول عنوة.. كنت في حاجة لتلك القراءة بشدة ولا أدري لماذا أنا بحاجة إليها.

مرتجفاً بعض الشيء وأحس بجفاف في الحلق، جلست أمام حليلة المرضعة، سلمتها كفي اليمني، وأغمضت بقية الحواس، ما عدا أذني اللتين ستسمعان.. كانت حليلة في الواقع تملك وجهاً لا يغري بمتابعة تفاصيله، خاصة حين يتل، أو ييس، أو يتحول إلى وجه أفعى.. وكانت معروفة بصرختها التي تطلقها، حين ترى مصيراً بائساً.. آخ.. لا أريد تلك الصرخة.. لا أريد.. هممت بسحب كفي والانطلاق بعيداً، لكن كل شيء كان قد انتهى.. كتابي الآن مفتوح أمام المرضعة:

وبهدوء كاد يقتلني، همست:

- كفك عرقانة يا علي، زرعك نابت في ظهرك، وذات العينين

الواسعتين، تراقبك من بعيد.

- وما لون هاتين العينين.. اخبريني؟

صرخت..

- أسكت

- وهل ستقترب؟
 - حين تجفّ كفك من العرق، وتأكل بلا عسر هضم، تعال إلى هنا.. والآن اذهب.. اذهب.
 وباقتدار نشال عريق انتهكت جيبي، عثرت على سبعة جنيهاً من ورق قديم ممتلئ بالبصمات والكتابة، أخذت نصفها وأعادت النصف.
 كانت الإثيوبية زهورات الآن واقفة مثل هاجس. وجهها مر، وآمالها التي تحطمت منذ وقت بعيد، جاءت مثل عاصفة، اقتلعتني من مكاني وألقتني في الطريق. لم أكن قد فهمت شيئاً، لا عرق الكف، ولا ذات العينين الواسعتين التي تراقب.. واستغربت حقيقة من تلك المرحلة التي خضبتها من دون وعي. كيف ينبت زرع في الظهر؟.. كيف تجفّ كف هي جافة في الأصل، ومشققة بفعل تقدم العمر ومرض الإكريم؟.. وأين عسر الهضم الذي لم أعرفه يوماً، حتى حين كنت أكل الحصى والتراب برفقة زملائي من عمال السكة الحديد؟
 قلت للإثيوبية قبل أن تتلاشى وراء الباب.. بلهاء
 قالت.. أعرف.. واحتفت.

كانت الشمس تمضي إلى مغيب حتمي خلف الأفق. ثمّة صبي يتبول على حائط كتب عليه: "ممنوع القرف من فضلك"، ثمّة رائحة لعطر نسائي رخيص ينبعث من مكان ما، ثمّة نباح ومواء، وصوت لأذان يأتي من بعيد..

حي على الصلاة.. حي على الفلاح..
 الحفر في الليل أشد قرصنة للخطوات، والمياه الآسنة ذات مناسبات وتواريخ ميلاد، هذه من ملابس كانت ملوثة بالشحم لواحد من عمال ورش الحدادة، هذه من مؤخرة طفل نام بلا حفاظات، هذه

من بقايا شهوة لامرأة اندلقت جامحة، وهذه من غسيل نادر لجسد لا يغسل إلا نادراً. كنت أرفع ثوبي لأمر بأمّان، وأتجه بأنفي إلى السماء حتى لا أشم.

يا علي.. ولا أحد أمامي.. يا جرجار.. ولا أحد خلفي.. يا علي يا جرجار ولا أحد عن يميني أو يساري. واكتشفت من تشابك الرعب في قلبي واهتزاز ركبتي، أنني أمام بيت آل مسيكة الذي كان في طرف الحي غير المأهول، وتسكنه إحدى عائلات الجن منذ جبلت أول طينة من طينه. لم يكونوا في الواقع خطرين أو مدمرين. لا سرقوا شاة ترعى، ولا كسروا قدماً أو يداً، ولا أقلقوا مناماً لطفل، ولا تعدوا حدود بيتهم إلى بيت أحد، لكنهم عرفوا بصناعة الخمر الجيدة، إذ يضع الناس خاماتها من تمر أو ذرة أمام الباب، ويستلمونها بعد عدة دقائق، خمرًا طازجة وكان أغرب ما فيهم، أنهم يشمّون الغرباء عن الحي، وبعض الذين أرادوا التجارة بخمورهم، فلا يصنعون لهم شيئاً.. وقد حاولت السلطة بمعاونة الأمّني موسى خاطرة عدة مرات أن تقتحم ذلك البيت، تدمر مصنعاً للخمر كانت تتخيله يدار بعقول بشرية مكارة، لكنهم دائماً ما يعودون بلا حصاد.. لا شيء سوى خرائب.. ووطاويط، وحيوط عنكبوت. وفي اليوم الذي جاءوا فيه بآلياقهم لذلك البيت، شلّت الآليات جميعها أمامه، وفرت السلطة تاركة بيت آل مسيكة مصنعاً أثماً لا يقدر عليه أحد. وأذكر أن أحد أعضاء برلمان المدينة المحلي أثار مرة موضوع آل مسيكة في إحدى الجلسات، اقترح الاستفادة من خبرتهم الطويلة في تقطير الخمر بتحويلهم إلى عطارين لصناعة العطور الفاخرة التي ستدعم الاقتصاد الوطني حتماً، لكن اقتراحه لم يقابل بالاستحسان، ومن ثم ضاع في تلك الجلسة.

عرق طازج يا علي.. من بلح الشمال يا علي.. بوظة يا جرجار.

وأسرعت الخطى فاراً باتجاه الضحيج.

وقفت أمام محل ترانيم الذي كان يملكه منعم شمعة تاجر الشنطة
المسافر دائماً، أو العائد من سفر، وأحد أعضاء قائمة النبوي السادسة
لمتابعة خبر الفرنسية. كان المحل عامراً ببضائع رخيصة من ملابس،
وساعات وأحذية، وأصباغ للشعر، وأساور، كان شمعة يجلبها فيما
مضى من بلاد الخليج وتايوان، وسوق رفسة الشعبي في العاصمة.
وحين انفتح عقل الصين مؤخراً، وانفتحت شهيتها للتجارة العرجاء،
وشدّت إليها طلاب الغش والثراء السريع، لبي شمعة النداء، وكان أول
مواطن من حي غائب، تحمله طائرة إلى ذلك المكان. كان قد سمى المحل
عند افتتاحه، تلاقيط ثم عاد وغيره إلى "رخيص وغالي". ومنذ عدة
أسابيع فقط، صادف في إحدى سفراته مضيضة جوية من أحد بلاد
الشام، اسمها ترانيم، وبالرغم من أن المضيضة لم تمنحه حتى ستمتراً
إضافياً من ابتسامتها التي خصت بها الركاب جميعاً كما ذكر في إحدى
الجلسات، إلا أنه لوى لسانه ليتحدث لمحتجها، ويغني لها أغنية من
أغنيات فيروز، أطلعها على صورة مهتزة تجمعها بتمثال الزعيم الصيني
ماو، أهداها ساعة إيل مقلدة، وعطر كوكو مقلداً أيضاً، وعاد مبهوراً
ليكتبها اسماً لمحلّه.

كان شمعة موجوداً في تلك الأمسية، لقد عاد بالأمس، وربما
يسافر غداً، أو بعد غد، سيجارته مخرقة حتى نصفها في فمه، وبين يديه
عدد من الخواتم ذات الفواريص الخضراء، والزرقاء، والبنفسجية،
يروّجها لامرأتين من نساء الحي الفقيرات، كنت أعلم تماماً أنهما لن
تشتريا.

- صدقاني.. اشتريتها من نفس المحل الذي تشتري منه الأميرة
خلود حليّها.

سألته إحدى المرأتين، وهي تحاول أن تنتزع خاتمًا من يده، لتجربه على إصبع يابس ومشقق:

- من هي الأميرة خلود يا منعم؟.

- سيدة جامايكا الأولى..

قالها شمعة ولم يضحك أو يبتسم.. أو يبدو غشاشاً يدير صفقة كاذبة. انتبه لوجودي بغتة على باب محله، أعاد خواتمه إلى موضعها تحت الزجاج، وقال للمرأتين.. فكرا وعودا غداً.. الخل مفتوح دائماً، وفي خدمة الجميلات، ثم صاح:

- تعال يا فرنسي..

وكانت عبارته تأكيداً سافراً على أن الخير قد وصله، واحترق أذنه حتى القاع. وعلى عكس ما توقعت، لم يبد شمعة مغرمًا بتقصي الخير إلى أبعد من كونه خبيراً، ولا النباش في مستقبل الحي حين تقطنه فرنسية نجمة. كانت سيحارته تحترق حتى نصفها في فمه، ثم تسقط لتنبت أخرى مكانها. يتحدث عن الصين كما يتحدث عن مارد أسطوري. يصف شارعاً كله إبر للخياطة، شارعاً كله خيوط لتلك الإبر. يصف غرف النوم والجلوس المصنوعة من خشب الزان والمهوقني، وحتى من البلاستيك المقوى، وأدوات الطبخ والطائرات التي رآها هياكل من حديد، ثم عاد في اليوم التالي ليحدها طائرات. يفتح ألبوم الصور في هاتفه المحمول، يريني ساحة تيان آن مين، وقد غصّت بسائحات أوروبيات، يرتدين الجينز والرغبة، يريني مصنعاً لأغطية الرأس اشترى نصف بضاعته بعدة دولارات فقط، وآخر للحواسيب، ينتج حاسوبين في الثانية. سألني عن عقار الساتيبو المهيج للغرائز، والذي ينتج هناك، ولم أعرفه، سألني عن قياس الخصر الشائع لدى الصينيات، ولم تكن لدي فكرة، عن شعوري الشخصي

حين تدلكني واحدة بنعومة الحرير وطرارة المسك، ولم أعرف
لأنني لم أحرب. وحين سألته عن صورة التقطت جلسة لواحدة
بزيّ أزرق، تنحني على الأرض لتلتقط شيئاً ما، انفرجت تعابير
وجهه..

- هذه ترانيم المضيفة.. الرحلة رقم صفر.. تسعمئة وعشرين،
دبي.. بكين بلا توقف.. آخ يا جرجار.

انحنى على رف تحتي في محله، أخرج قارورة لعطر نظيف، رشه في
وجهي وهو يهمس:

- أليس عطر كوكو الأصلي؟

ولم تكن لدي فكرة أيضاً، كانت ثقافتي العطرية قد توقفت منذ
عهد بعيد، ولم تتجاوز عطور الصاروخ والريفدور، وعطر بنت
السودان الخبيث.

فجأة احترق وقفننا الأممي موسى خاطر، سمعنا ضحيج دراجته
النارية ساخناً، ثم جهازه اللاسلكي، يحكي شفرة عن صيادين سكارى
يحبون تيساً بستة قرون، وعنزة ذات أجنحة سوداء تطير وتخط، ونهر
صغير بدأ يتحول إلى بحر. التفتنا كلانا إلى مدخل المحل، لنرى موسى
خاطر يدخل بتلك النظرات المتلفتة الحذرة التي قيل إنه تعلمها في مكان
ما، حين كانوا يعدونه أمنياً لينغرس في حي فقير. لم يلق السلام
وخاطب شمعة مباشرة..

- هل أحضرتها؟

- نعم.

رد شمعة، ومضى إلى إحدى خزائنه الزجاجية. أخرج علبة
متوسطة الحجم، ملفوفة بقصدير أحمر، سلّمها للأمني الذي أسكنها
جيبه وهو يبتسم، وفي طريقه للخروج التفت إليّ..

- موعدنا غداً يا جرجار.. السادسة صباحاً في بيت النبوي.. لا تنس أن تحضر معك شايًا وبنًا وزنجبيلًا. لا يوجد اجتماع بلا صداع.. سلام.

لم يضحك حقيقة، لكنني خلته ضحك بمئة حلق، ولم يضيف حرفاً آخر لكنني خلته أضاف حروف الدنيا كلها.

رن الهاتف الجوال لشمعة بغتة بموسيقى صينية فيها أصوات عصافير، وإيجاءات جدول رقرق، شاهدت رأسه يتمايل مراراً قبل أن يرد على المكالمات التي كانت فيما يبدو من شريك أو تاجر زميل لأن كلمة صفقة ترددت عدة مرات أثناء الحديث. وحين انتهت المكالمات سألتني:

- هل تريدها نعمة لهاتفك يا جرجار؟

قلت: لا.. هاتفني بلا رصيد في الوقت الحالي، وقد يظل هكذا لوقت طويل.

غادرت محل ترانيم وأنا مقتنع أشد القناعة بعدم صلاحية النبوي حتى لرئاسة سوق مكتظ بالخمير. حليلة قارئة المصائر التي اختارها، تبدو غير عابئة حقيقة، ولم تسأل حتى عن الخبر. شمعة تاجر الشنطة، عقله في الصين، وجسده يترنح بين المطارات جيئة وذهاباً. موسى الأممي في قلب الحدث، ويعرف حتى عدد الكريات الحمراء، والبيضاء في دم النبوي، وغيره من سكان الحي، والآخرون لن يكونوا أشد ثقلاً لملاء أي فراغ. ثم في النهاية لو كانت تلك الزيارة المرتقبة رسمية، أو حتى شبه رسمية، إذن لكونت السلطة لجأها وتفرعات لجأها، وتفرعات تفرعات لجأها، ولابتل حي غائب المسكين، بآلاف الإفرازات الغريبة. سداجة أطفال.. هكذا قلت في نفسي، لكنني سأذهب وأجتمع، وربما أضحك في سري حين أجد الأممي موسى جالساً في قلب

النسوي ومصارينه، يحرك الأمور في اتجاه سفيه، أو يتخذها مادة لتقرير جديد.

انتبهت إلى أن عيادة اللورد سيف مضاعة، وهي التي ظلت مظلمة لعامين كاملين إثر وفاة مؤسسها الدكتور سيف خليفة بممرض مفاجيء. كانت العيادة الوحيدة في حي لا يغري طبيباً بافتتاح عيادة فيه، وحين جاء سيف منذ عشر سنوات إثر عودته من اغتراب طويل في بلاد اليمن، طاف في الحي بعربته اللادا وقرأه بعينه وخبرته، لم يفرع أو يفر، استأجر بيتاً في وسطه، وصمم عيادة غربية لم تقبل لفقر اذهب، ولا رفضت مداواة مغص كلوي، أو استفراغ أمعاء لأن صاحبه بلا مال.. كان سيف في الواقع طبيباً فريداً، إخاله لم يكسب قرشاً واحداً من حي غائب، لكنه كسب مودة من الجميع، سموه اللورد سيف.. انتهكوا حتى قيلولاته، وموائد غدائه، وعشائه في حي البساتين في قلب المدينة حيث يقيم، وبكوه بمرارة حين مات بممرضه المفاجيء، وقد ترك صاحب البيت برغم حاجته إلى المال، تلك العيادة هكذا، لم ينزع اللافتة، ولم يحولها إلى سكن. استغربت من تلك الإضاءة ورفعت عيني لأقرأ بحروف واضحة.. "عيادة الدكتور أحمد سيف خليفة".

إذن فقد جاء شبل جديد من أسد قديم.

لورد حديث من لحم لورد رحل.

كانت الرائحة التي شممتها بغتة، جارفة بشدة. إنها رائحة عطر ماكسي الذي يستخدمه الصبي أيمن داؤود الشهير في الحي بـ "أيمن الحضاري". كان صبياً يدرس في إحدى المدارس الثانوية في المدينة، لكنه أيضاً عرف سكة التكنولوجيا والإنترنت ومواقع الدردشة، واكتسب ثقافة كبيرة كان يبهز بها أهل الحي في كل مناسبة.. وعن طريقه عرفنا كلنا ماذا تعني كلمات مثل ياهو، وجوجل، والمسنجر،

وماذا يمكن أن يضم موقعاً مثل يوتيوب أو الإخوة أونلاين. ولا أنسى ذلك اليوم الذي جاء فيه يتقافز بنشوة، حاملاً صورة مبتسمة لمعني البوب الشهير ألتون جون، مذيلة بتوقيعه، ومهداة إلى أيمن.. صديقي من منطقة غائب في بلاد نهر النيل. لم يحسده أحد في ذلك اليوم، ولم ترسم أي غيرة على الوجه، كان مستر جون، وكل تلك الأسماء التي رسمت هالاتها وضيائها في أماكن بعيدة، لا تعني شيئاً في حي كغائب. كانت مجرد أسماء لا أقل ولا أكثر.. وإخاله لوجاء بصورة لـ "كبري" لاعب كرة القدم المحلي، أو نواس الذي يصنع أعظم طبق فول في المدينة، أو حتى راقصة الزار عالية طقطوق، لصفق له الحي كله. خاطبني أيمن الحضاري مباشرة..

- أخيراً نشروا الفيديو المحرم. نشره في الـ "يوتيوب".

سألته بفضول:

- أي فيديو محرم؟

- ذلك الذي التقطه عشيق الراقصة جوهرة بكاميرا مخبأة، حين

كانت عارية في أحضانه، وسرق وسرب من قبل أحد الخدم..

شريط خطير.. خطير جداً.. لا بد أن تشاهده يا جرجار.

في الواقع لم تكن لدي أدنى فكرة عن تلك الواقعة، لا سمعت براقصة

اسمها جوهرة، ولا بشريط محرم التقطه عشيقها، وما أحسست به تلك

اللحظة كانت رغبة جارفة في شد الصبي من أذنه، وتجريده من تلك

الشيطنة. وبالرغم من أنني لم أكن أباً ولا جدّاً، ولا كنت سوى نموذج

شيطان من جيل قديم ما زال يمارس الشيطنة، إلا أنني أحسست بأنه

أهانني، أهان عمري المديد ولم يعطه حقه، أهان عمامتي على رأسي ولم

يجعلها عمامة لكبير. تمالكت نفسي حين تذكرت جوانب إيجابية في

سياحة الصبي حول العالم في ذلك الفضاء الافتراضي.

- حسنا.. ما رأيك في خبر الفرنسية التي ستزورنا؟
- رفع أيمن أصابعه إلى رأسه ربما ليحككه، أو يهش بعوضة طنانة:
- غدا أعطيك انطباعي.. بعد أن أعود من الإنترنت كافي.
- وهل ستأتي في الصباح إلى بيت النبوي لحضور الاجتماع؟
- لا.. عندي مشاغل عديدة.. سلام

انفلت من أمامي بسرعة، ليظل عطره الماكسي عابقاً في أنفي لثوان. كان يتيماً، مات أبوه في حرب الجنوب، قبل أن يولد، ومات أمه وهي تلده، ورباه حي غائب كله، لكنها تربية بلا قواعد.. أن يأكل ويشرب، ويضع رأسه على وسادة متسخة لينام، وربما قروش قليلة من هنا وهناك لتنقلاته إلى وسط المدينة، ولا شيء آخر. وكانت غزواته للكمبيوترات والإنترنت، بلا تكاليف، إنها الدعم الوحيد الذي قدمه عبد الله جني صاحب كريزي كافي في سوق المدينة، لواحد يتيم من حي غائب.

فتحت باب بيتي، فأزعجني صريه لأول مرة، أحسست به عائقاً محتملاً، ربما يتأمر ليفسد حضارة أريد أن أتخضرها، أسرعت إلى مطبخي الذي كان ركناً مبعثراً في البيت، أحضرت قليلاً من الزيت أخذت أصبه على مفاصل الباب حتى سكن توجعها، الآن أملك باباً سلساً، باباً يفتح وينغلق من دون وعكة، واستغربت كيف ظللنا كل تلك السنوات نحترم أبواباً بكل تلك البذاءة؟.. في ذهني الآن خطة أخرى، سأطوف في القريب العاجل على كل أبواب الحي، أزيّت مفاصلها، وأغير من تلك الثقافة التي أعتبرها الآن ضحلة. رن هاتفي المحمول رنة مبتورة، أو مكاملة ضائعة كما تكتب الشاشة، فتحتها لأجدها من عذيلة.. من هي عذيلة؟.. ما أوصافها؟ ما مدى صلتها بي؟ وهل هي امرأة أخرى تستعد للزواج من رجل مزواج باللسان

فقط؟.. لا أدري.. ولأول مرة في حياتي تضيع مني أنثى كنت قد
كتبتها بيدي في هاتفي المحمول.. رنت عذيلة مرة أخرى.. وهاتفي بلا
رصيد، مرتين آخرين وبلا رصيد.. هذه أيضاً ثقافة نعتز بها، أن تملك
هاتفاً محمولاً ربما تستدين سعره، تنتقيه من ماركة شهيرة كـ "نوكيا"
أو سامسونج، تطوف به مباهاياً، تشتت رقمه هنا وهناك، ودائماً بلا
رصيد.. لم يكن الأمر مقتصرًا على حي غائب الفقير فقط، لكنه وباء
عام في كل البلاد أشبه بوباء الملاريا والتيفود، ولدرجة أن إحدى
الصحف المحلية، حررت مرة ملفاً كاملاً عن ذلك الوباء، سمته "احتاج
إليك بلا رصيد" واستطلعت آراء عدد كبير من المشاركين الذين أيدوا
تلك الثقافة، وأوصوا بتعميمها على العالم أجمع. وأذكر أنني التقيت في
العام الماضي بمتألق من مصر يعمل في إدارة أحد الفنادق الكبرى بمنطقة
الخليج، كان اسمه رأفت عبد التواب وكان مهذباً حتى حين يسعل، أو
يطالع ساعته ليعرف الوقت. جاء إلى البلاد بحثاً عن عمال يفهمون في
فن الضيافة وري الحقائق وقيادة سيارات الليموزين، ليلحقهم بفندقه
الراقي. كان هاتفه يرن رنات مبتورة بلا انقطاع، واكتشفت أن المدينة
كلّها ترن بلا رصيد لرجل ضيف أعطى رقم هاتفه لبعض الناس نوعاً
من التواصل.

لم أكن من هواة تأمل الصور التذكارية التي تمثلني في مرحلة ما،
من مراحل العمر، أو تجمعني بأشخاص عرفتهم ذات يوم وضاعت تلك
المعرفة في بحر الحياة الكبير، لكنني وجدت رغبة ملحة تدعوني إلى النبش
في خزانة مغبرة واستخراج عشرات الصور، لقراءة تذكاراتها في ذلك
المساء المشحون.. فردت الصور أمامي وأخذت أتأملها بعمق.. هذه مع
ردرر قائد القطارات الذي مات في حادث خرجت فيه قاطرته عن
سكة الحديد.. هذه مع الخضر، منسق الحجوزات في الدرجة الأولى،

الذي ظل يحصد لقب شخصية السكة الحديد السنوي، منذ أن أطلق وحتى اندثر، لا شيء سوى أنه وجد أماكن لتسعة عسكريين في قطار ليس فيه مكان لشخص واحد، تحرك ذات يوم من مدينة جيبا التي بها كتيبة جبارة من حرس الحدود، ولم يكن يدري أنهم كانوا أعضاء مجلس قيادة لثورة جديدة، اندلعت بالفعل في العاصمة بمجرد نزولهم من القطار، هذه مع زكريا حنقة الذي كان ناظراً لمخطة المدينة، وأصبح فجأة وزيراً للنقل والمواصلات في حكومة استمرت لثلاثة أيام فقط.. هذه مع المقدم عادل التولة أعظم ضباط الشرطة على الإطلاق، حين كان ملازماً في شرطة السكة الحديد وكانت بمناسبة ترقيته إلى رتبة النقيب.. هذه مع الرحالة المقعد حاكم عذابو مؤسس حزب "وطنك الكبير" الذي أفخر بانتمائي إليه، بالرغم من بقائه حزباً مغموراً، بلا أعضاء، ولا برامج ولا خطط، وكانت في الذكرى الثالثة لتأسيس الحزب.. هذه.. هذه. وحين وصلت إلى صورة تجمعي مع مغنية الأفراح الشهيرة حواء سخطة في عرس أقيم مرة في حي السلايلب الشعبي أيضاً، لم أبتهج.. ولم أحس بجواء غير تاريخ متخلف أيضاً عليه أن يموت الآن. مزقت الصورة وألقيتها على الأرض.. ليظل مكانها خالياً في ألبوم الصور، ربما لتشغله فيما بعد صورة أشد جاذبية.

فجأة سمعت طرقة خفيفاً على الباب.. ليس مألوفاً لأذني فقد كنت أعرف كل الذين يطرقون بابي من طريقة طرقهم. أعرف الطرق المربع للأمني موسى خاطر حين يكون دفتره بلا تقارير، ويسعى إلى تلفيق تقرير ما، الخشن والمتعجل لـ "منعم شعمة" المسافر، أو العائد من سفر، الناعم جداً للجميلة سلافة حين تأتي لاستشارتي، أو استفزازي، الذي تحدثه عصا الأبنوس السوداء في يد حكيم النبوي.. وحتى طرقات الأطفال حين يطرقون بلا هدف،

كنت أعرفها. فتحت الباب فانفتح سلساً بلا صرير، وشاهدت في الضوء الخفيف لكهرباء الشارع، الطارقين وقد ارتفعت حواجهما دهشة.. كانا شاكر تعيس الذي لم يذق ماء زمزم حين جاء إلى الحي بعبوة شاحنة، ونهل منها الجميع، والقبطي ميخا ميخائيل الذي سكن في الحي منذ عامين فقط بعد أن هاجرت عائلته كلها إلى أستراليا، وبقي هو في المدينة، بحجة كثافة الذكريات التي لا يستطيع تركها خلفه ولا يستطيع حملها معه. كان يصرخ في كل ركن يجد فيه أذاناً تستمع إلى الصراخ.. قبر أبي ميخائيل دقندس، مقهى روماني اللذيذ.. الأب مكارس الذي يحتاجني في شيخوخته.. كنيسة العذراء التي شاركت في طلاء جدرانها بالأبيض.. حبي الأول.. حبي الأخير.. آخ.. كيف أترك كل هذا وأذهب؟ هل جننتم؟.. كيف أتركه؟

- باب بلا صرير؟

هتف شاكر تعيس، وحاجباه ما يزالان مرتفعين..

- نعم بلا صرير.. وغداً ستكون أبوابكم كلها بلا صرير..
أدخلا..

دخلا إلى البيت، ونظرات تعيس ما زالت تشتم الباب غير المحترم في ذلك الحي الذي لم يشذ فيه باب أبداً من قبل، جلسا على الكنية القديمة التي لم تكن مستعدة لحمل ثقلين، فاهتزت.. كان تعيس في الغالب قد جاء لتقصي خبر الفرنسية القادمة من بعيد، لكني لم أجد سبباً واحداً يأتي بقبطي رفض هجرة عادلة ومتحضرة، من أجل رفات، ومقهى تافه، وكنيسة آيلة للسقوط، بينما تقاتل كل أقباط المدينة والمدن الأخرى، حتى ينالوها.

- نعم.. خير..

قلت كاسراً صمتاً أحسست به قد يطول، ومفتتحاً جلسة لم تكن من ضمن جلساتي المفضلة، خاصة في ذلك اليوم حين بدأت تغيير بعض الثوابت في حياتي التي كانت كلها ثوابت بذيئة.

- في الواقع، يريد الأخ ميخا أن تصنع له معروفاً لن ينساه لك.
تلثم تعيس، بينما كان رفيقه صامتاً وإحدى قدميه تفتز.

- معروف؟.. أي معروف؟

- يريدك أن تقدمه إلى الفرنسية كاتيا كادويلي حين تأتي إلى الحسي.. يريد الهجرة إلى فرنسا.. سيكمل تعلمه آلة الأورج ويصبح عازفاً محترفاً.. و..

قاطعته مستغرباً، وملفتناً إلى القبطي الذي احمرت إحدى عينيه فجأة، وبدأت قدمه الأخرى تشارك في الاهتزاز.

- وقبر أبيك ميخائيل دقندس؟ ومقهى روماني اللذيذ؟..
وكنيسة العذراء التي شاركت في طلائها؟، وشيخوخة الأب مكارس؟

- حدثت تطورات يا أخي.

رد القبطي.. في توتر..

- تطورات؟

- نعم.. تطورات كثيرة.. قبر أبي، أزاله السيل الأخير ولم أعثر عليه أبداً.. مقهى روماني اشتراه أحد المستثمرين الأجانب، سيحولونه قريباً إلى مصرف.. كنيسة العذراء رفع عنها الدعم البابوي مؤخراً بسبب سوء حالتها.. وغالباً ستهدم هذا العام.

- والأب مكارس؟

- مات بالأمس.

تأملت القبطي ميخا ميخائيل دقندس في جلسته المهتزة تلك..
كان قد تجاوز الستين بلا شك، شعره أبيض، حاجباه أبيضان، وجهه
ممتلئ ببقع الدهن والبهاق، وثمة دموع حقيقية تسعى للخروج من
عينيه.. كان مسكيناً بلا شك.. لا زوجة، ولا عيال.. والآن لا
ذكريات يعرض عليها بعد أن ضاعت الذكريات.. ولم أستغرب أبداً من
طلبه أن أقدمه إلى خيال لم ألمسه بعد، إلى فرنسية لا أعرف حتى قياس
نعلينها.. أو صبغة الشعر التي ستظهر بها في الحي.. كان في الواقع أملاً
خائر القوى من رجل بلا آمال.

- وأستراليا.. لماذا لا تذهب إلى عائلتك هناك؟
- لا أستطيع يا أخي.. لقد بصقت على أوراق الحجرة في حضرة
القنصل حين قدموها لي، وصنفوني ممنوعاً من الدخول إلى الا
بد.

- حسناً.. سأقدمك إليها بعد أن أقدم نفسي أولاً.. لا تحزن.
قلتها تطيباً لل خاطر، لكن القبطي ورفيقه تعيس، تلقيها ضوءاً
إيجابياً، رأيتهما ينهضان مبتسمين، يشدان على يدي بقوة، ويتجهان إلى
الباب الذي انفتح بلا صرير، لكن لم تكن هناك أي دهشة، أو عدم
احترام لباب شفي أخيراً من وجع المفاصل.

-2-

السادسة صباحاً، توقيت الثورات والانقلابات، واختفاء جرائر التذكر في النفوس، وتوقيت موسى الأمني في رياضته اليومية العنيفة، حين اقتربت من باب حكيم النبوي لأرى ماذا سيحدث في اجتماعه المرتقب ولم أكن أحمل شأياً ولا بنا ولا زنجيلاً لأن بيتي بلا شاي أو بن أو زنجبيل. كانت الشمس قد بزغت نصف بزوغ. في الهواء رائحة حلبيب مر وصندل محروق ومن بعيد تبدو قافلة من النساء البدينات تسير على مهل.. صوت نحشن من أحد البيوت: افتحي النافذة.. افتحيها بسرعة، صوت ناعم من وراء ضحكة: فتحتها.. فتحتها. صوت طفولي.. لا أملك قلم رصاص، ولا مسطرة يا أمي.. صوت أمومي.. خذ من زميلك.. اذهب.

في مثل هذه الساعة أبدو دائماً في قمة الاستيقاظ، ذاكرتي المدربة على الصفاء تبدو حاضرة، وقدماي اللتان تجيدان المشي حتى الآن، تمشيان بلا تعب. في إحدى السنوات حاولت أن أفلد موسى خاطر، أركض ركضه الصباحي، وأنا ارتدي حذاء صينياً رخيصاً اشتريته من ترانيم. لكنني تعبت بعد عدة دقائق، واكتشفت لاحقاً أن رياضة موسى الصباحية كانت في باطنها شماً متقناً لعورات الصباح وليست رياضة صرفة. وفي العام الماضي، وحين جاء الرحالة حاكم عذابو إلى المدينة ليلتقيني ويطمئن على استمراري في عضوية حزبه، همس في أذني.. هل تعرف ضباطاً أحراراً في الجيش لنعتمد عليهم في إشعال ثورة

صباحية؟.. ارتعبت بشدة.. لكنني اعتبرتها مرحلة من رحالة مشلول لم يجد له مقعداً في السياسة إلى الآن. دققت في رمل الطريق بحثاً عن اثر لحذاء الأديداس الذي يستخدمه الأمني عادة حين يركض، لكن لا أثر، دققت أكثر في بزوغ الصباح بحثاً عن واحد من أعضاء لجنة النبوي السادسة، لكن لا أحد، لعلهم سبقوني أو لعلني سبقتهم، لا أدري. على باب بيت النبوي توجد كتابات كثيرة، بعضها بخط صبيان يكتبون على كل باب، بعضها بخط ناضج يعرف ما كتب.. قرأت "زوزو الرهيبة.. أحب سلافة الجميلة.. قرأت.. "نوم العافية يا نائمين"، وقرأت.. "قلبي في بيت آل مسيكة".."أعشق خمور الجن.. وبناقم اللذيذات". طرقت الباب فانفتح بعد عدة دقائق، ليطلعني أحد ولدي النبوي، وكان نائماً تماماً، لأنني سمعت شخيره قوياً وحاداً..

- الاجتماع تأجل يا عم.. مع السلامة.

لم أستوعب عبارته أو لعلني لم أتوقعها. مددت يدي وطرقت مرة أخرى، وفتح هذه المرة صبي أكبر، وكان في أشد ساعات النوم حلياً للمتعة.. كان يتأوه ويتفض ويده اليسرى على أسفل ثوبه:

- الاجتماع تأجل يا عم.. مع السلامة.

شعرت بعسر هضم في أذني، طرقت للمرة الثالثة، ولم يفتح أحد. أخرجت هاتفي المحمول لأستخدمه بطريقة "أحتاج إليك بلا رصيد"، لكن النبوي رن بمكالمة هي أيضاً بلا رصيد. ظللت أرن بلا رصيد، والنبوي يرن بلا رصيد، حتى يقست ويقس النبوي كما يبدو، لأن الباب انفتح في النهاية، ووجدت الرجل الضخم الذي أقعده روماتيزم العظام مؤخراً، يتكئ على عكازتين مشققتين وهو يصرخ:

- الاجتماع تأجل لأسباب طارئة.. تعال في الغد، ولا تنس

الشاي، والبن والزنجبيل. لا توجد اجتماعات بلا صداد.

هممت أن أسأل عن تلك الأسباب الطارئة التي تجعل زعيماً مثل النبوي يستغنى فجأة عن زعامته أو يؤجلها إلى يوم آخر، لكن القلعة انسدت في وجهي ووجدت نفسي أرن لأعضاء اللجنة الباقين بلا رصيد.. ويرنون بلا رصيد.

كان دكان عركي، محلاً صغيراً في وسط الحي اعتدت أن أستلف منه حاجياتي اليومية، ريثما أقبض معاش السكة الحديد، أو يصلني ذلك المبلغ الشهري الذي يرسله ابن أخت لي يعمل عاملاً للنظافة، في إحدى دول الخليج. كان عركي طيباً وصبوراً، وواعياً فقر البيئة، ومستعداً حتى لتسليفي حذاءه اللامع حين أحججه في مشوار خاص، وابتسامته الطرية حين أجيئه عابساً ومهموماً، وفي إحدى السنوات حين وصلت ديوني عنده مبلغاً أحس به قد يجرح طبيته وصبره، ويضطره إلى إغلاق دفتاره في وجهي، راسل إحدى الجمعيات الخيرية التي تنطلق من إحدى دول الخليج، وتعمل في البلاد، حدثهم عن سجين سابق اسمه جرجار خرج من السجن معدماً وتائباً، ويريد العيش نظيفاً إلى الأبد، لكنه يحتاج إلى بداية، وكان أن استلم من تلك الجمعية بدايتي المزعومة التي كانت ديونه كاملة، ومبلغاً إضافياً مكنتني من أخذ حاجياتي من دكانه لعام كامل من دون وجل، أو مراقبة لخطه الركيك وهويركض بين سطور دفتره.

كان عركي موجوداً في نشاط الصباح كعادة تجار الأحياء البعيدة، منكباً على إحصاء بعض القطع المعدنية التي غالباً ما كانت حصيلة شراء لمتسول، حين وقفت أمامه، بادرنى بابتسامته..

- صباح الخير يا جرجار، هل من جديد في موضوع الفرنسية كاتيا؟

- لا.. ليس بعد.

- دعها تمر على محلي حين تأتي.. عندي عسل يمحي، وزيتون إسباني، وحفاظات نسائية من ماركة، أولويز.. وقد أضيف بعض العطور الغالية عند الطلب.

ضحك، وانتبهت إلى أنني لا أعامل في الحي ناقلاً عادياً لخبر قد يصدق وقد يخيب، ولكن مالكاً فعلياً للخبر، وصاحب امتياز في تأطيره حين يتحول إلى واقع. أطربتي تلك الصفة، ومن ثم كنت متعالياً، حين طلبت رصيذاً لهاقني، وحاجيات عادية، وهممت بالانطلاق لكن عركي استوقفني:

- انتظر.. عندي مفاجأة.

رأيته يتجه إلى عمق دكانه حيث يحتفظ بالبضائع الواردة قبل تعريضها وعرضها في الواجهة، يعود حاملاً لوحاً مستطيلاً من الخشب مغطى بقماش أبيض، وحين أزاح القماش أمامي.. وجدت لوحة من تلك التي تعلق على واجهات المحلات، مكتوب عليها بخط عريض وباللغتين العربية والانجليزية:

بقالة كاتيا.. Katia grocery

وقبل أن أندش.. قال عركي..

- سأعلقها على محلي حين تأتي صاحبتك، وستجد محلات للخياطة واللحم والخضر والفواكه، تحمل اسمها كذلك.. لقد صنعنا كل ذلك بالأمس حين سمعنا بالخبر.. هل الخط جيد؟

في البداية لم أرتح لذلك التطور، الذي حدث في الحي من دون معرفتي أو مشورتي، لكنني ما لبثت أن اعتبرته احتفاءً ناضجاً من أولئك الذين يملكون قليلاً من خامات الاحتفاء. ولا أظن أن كاتيا حتى لو كانت نجمة شهيرة كما آمل، ستضار من ظهور اسمها عنواناً لمحلات

يرتادها المهمشون في حي ستقيم فيه فترة من الوقت. بل على العكس قد تطرب بشدة. وبعد برهة من التعمق في التفكير، أصابني بعض الإحباط، فلم أكن أملك محلاً أسميه كاتيا. ولو كنت ما أزال في خدمة السكة الحديد، ربما أطلقت اسمها على قاطرة مكتملة الصيانة.. ليس مهماً.. ليس مهماً.. قلت في نفسي، سأعثر حتماً على امرأة حامل بنت اسمها كاتيا، أو شارع نظيف بعض الشيء، أطلق عليه اسمها. عدت إلى عركي، أضفت إلى شرائي فرشاة جديدة للأسنان، وصابونة من ماركة زست.. وكانت المرة الأولى منذ خمسة أعوام، أجدد فيها فرشاة أسناني، والمرة الأولى التي أشتري فيها مثل ذلك الصابون. حين وصلت إلى بيتي أخيراً، كان الحي كله قد استيقظ، ارتفع النشيد الصباحي لحناجر تلاميذ المدرسة الابتدائية، خرج العاملون إلى أعمالهم والمتبطلون إلى الشوارع يساهمون في ملء ضحيجها، شاهدت ميخا ميخائيل منكس الرأس وفي يده زهرة بنفسجية، زهورات الإثيوبية تحمل سلة من السعف مليئة بالحاجيات، أيمن الحضاري، ينحشر بسرعة في حافلة مكتظة، متجهة إلى وسط المدينة، المغني فرفور صاحب أوبريت العمامة، يترجل من سيارة للأجرة وفي يده عوده القلسم، وعلى باب بيتي كان موسى خاطر يجلس على دراجته المطفأة مشعلاً سيجارة رخيصة.. دهمي بلا مقدمات:

- لماذا اخترت فرشاة أسنان حمراء يا جرجار؟.. الأخضر هو رمز الوطن..

وانتهت وأنا أقلب في كيس حاجياتي التي اشتريتها، أو بالأحرى استدنتها منذ خمس دقائق فقط، أن فرشاة أسناني كانت بلون أحمر. لم أرد على موسى الذي أشعل دراجته ليمضي، لكنني لحتته يكتب شيئاً ما على ورقة صفراء.

في البداية كانت جريرة تزييت مفاصل أبواب البيوت، ومحو أوجاعها شاقة للغاية. استقبلت الفكرة باستهجان عنيف برز في عدائية الأصوات، والضحك المتواصل لكبار السن، ونواح النساء على صرير بيوتهن الذي يود معتوه أن يزيله. كنت قد استعنت بشاكر تعيس الذي أقنعتة سلاسة بابي حين شاهده يفتح ويغلق، والجميلة جداً سلافة، لأن كثيراً من الصارمين قد يفقدون صرامتهم حين تبتسم. استغرقنا عدة ساعات حتى نقنع الجميع، ومن ثم عدة ساعات أخرى، حتى شفيت معظم المفاصل.. وكانت من إيجابيات تلك الحملة، أنها ضمت في استعارها أعضاء جددا لم ندعهم للانضمام، وسمعنا أن أبواباً كثيرة قد عولجت بواسطة مالكيها حين سمعوا أو شاهدوا ما حدث لبقية الأبواب، وأقسم العديدون أنهم شاهدوا زيتاً كثيفاً ينز من خرائب آل مسيكة التي كانت بلا أبواب، واعتبرتها مشاركة حقيقية من سكان أصليين في الحي. فرغنا أخيراً، لكن بقيت حوالي العشرة بيوت من بينها بيت النبوي حمل ساكنوها من الرجال العصي في وجوهنا، بينما سلّت نساؤها ألسنة كالجمر رمتنا بشرارها..

-3-

كان النهار قد انتصف تقريباً حين وصلت إلى مبنى المحافظة في وسط المدينة، لعلّي أعثر على خيط جديد، أضمه إلى خيوطي المبعثرة. كان المبنى مهتاجاً في ذلك اليوم، وقد وقف العشرات من سائقي اللواري، والشاحنات الثقيلة، يتصايحون ويصفرون، ويرفعون أصابعهم الخشنة بعلامة النصر، بينما انتشر حولهم عدد كبير من رجال الشرطة يحملون الوجوه الصارمة، والعصي المطاطية، وخامات الغاز المسيل للدموع..

- هل هو إضراب عام؟

سألت متفرجاً، يحمل في يده اليمنى صحيفة مطوية وفي اليسرى زجاجة من مشروب بزيانوس المحلي الرخيص.

- شبح البطالة.

همس المتفرج، وعيناه تلاحقان فتاة بري أرجواني، كانت محشورة في وسط الأجساد والصراخ، ولا تستطيع الخروج.

- أية بطالة؟

- سحبوا منهم امتياز نقل الإغاثة إلى الأقاليم.. أعطوه لشخص كبير.. سيناريو عادي.. ومكرر..

همس المتفرج مرة أخرى، وعيناه لا تفارقان مأساة الفتاة. تلملمت من أمامه، وشققت طريقي إلى داخل المبنى بصعوبة شديدة، لم تكن سريرة بائعة الشاي المرابطة دائماً هناك، موجودة في

ذلك اليوم، لتطالبني بتحديد يوم الزفاف وعدد جرائمات خاتمها، ولا عثرت على صديقي الحكومي مبروك في كل غرفة من غرف المبنى، اقتحمتها من دون استئذان.. كان في اجتماع طارئ لقيادات المحافظة.. اجتماع لاحتواء أزمة كما يسمونه، واقتنعت أخيراً بعدم جدوى وجودي في مكان قد ينفجر فجأة، وقد يتحول إلى ساحة من ساحات حرب لا يعني خوضها بأي حال من الأحوال، خرجت مسرعاً، لأجد الفتاة ذات الزي الأرجواني ما زالت محشورة في مكانها، وبعض لصوص الجسد يحاولون سرقة لمسة، أو بذاءة من تحت قميصها الذي كادت أن تذيبه العيون.. سأحتوي أزمته.. قلت في نفسي وأخذت أصرخ:

زوجتي.. أم عادل.. زوجتي..

لم أعرف لماذا أم عادل بالذات ما ورد إلى ذهني في تلك اللحظة، لكن أزمة الفتاة انحلت تماماً، تفكك من حولها الصراخ والتشابك، واندفعت خارجة، ليس في اتجاهي، ولكن في اتجاه متأنق وسيم، كان يقف مرتبكاً ومتصبباً بالعرق وهو يشاهد أزمته بلا حل. فجأة جاءتني مكالمة، مكالمة كاملة بلا ضياع ولا "أحتاج إليك بلا رصيد". كانت من أيمن الحضاري، لأنني شمت عطر الماكسي يفوح فواراً من هاتفي قبل أن ألمسه.

- هل أنت في السوق يا جرجار؟

- نعم.. تقريباً.

- إذن تعال إلى كيري كافي، أريد أن أريك شيئاً.

كان كيري كافي مقهى صغيراً في وسط السوق الكبير، أنشأه عبد الله جني الذي كان مدرساً سابقاً للفلسفة، وعضواً بحزب البعث العربي الاشتراكي المخطور في البلاد، بعد خروجه من سجن مكث

فيه قرابة الخمسة أعوام. زوده بعدة كومبيوترات، وخطوط للإنترنت، وشاي وقهوة ونسكافيه، وأتاح للعامة أن يسبحوا في ذلك البحر الافتراضي العريض بأجور زهيدة، وفي غرفة زجاجية ضيقة داخل المقهى كان دائماً ما تجده مشغولاً، يدخن سجائر البحاري المحلي، ويعلم المبتدئين الذين غالباً ما كانوا صبية يافعين، كيف يسبحون لأول مرة، وكيف يخرجون من تلك السباحة. لم أكن من رواد ذلك المقهى أبداً، ولا من جيل يستطيع جنّي أو غيره إدخاله إلى ذلك البحر، لكن أئمن الحضاري كان زائراً يومياً، وحلقة للوصل بيننا وبين بحر جنّي المفتوح.

عثرت عليه جالساً على مقعد مكسور في ركن قصي، وعيناه معلقتان بالشاشة عند موقع جوجل.

- أنظر يا جرجار.. لديك ثلاث كاتيات شهيرات، واحدة منهن هي صاحبتك بالتأكيد.

ثم ابتداءً يقرأ بصوت خافت.. ليس بلغة الكومبيوتر، ولكن باللغة العربية بعد أن ترجم النصوص، ومستعيناً بالإنترنت أيضاً..

- كاتيا لويس كادويلي الشهيرة بالبطّة لأنها لم تأكل في حياتها لحمًا غير لحم البط. تنحدر من أحد الأقاليم في شمال فرنسا، غنت لأول مرة وهي طفلة صغيرة، ووصلت إلى قمة الجحد حين غنت لإفريقيا واصفة محنة السود في مواجهة العنصرية، هي الآن ترعى عدداً من الأيتام، وتحمل لقب سفيرة للسلام، تطوف به في كل أرجاء الأرض.

- كاتيا هولم كادويلي.. شاعرة ومترجمة شهيرة، هي يهودية الأم.. عاشت طفولتها وجزءاً من شبها المبكر في إسرائيل، وعادت إلى فرنسا منذ ست سنوات لتنشر عدداً من دواوين

الشعر، وتناضل ضد أعمال القمع التي تمارسها إسرائيل في حق العرب.. وفي هذا الشأن زارت عدة بلاد عربية، وعاشت في أحياء فقيرة لتكتب المعاناة شعراً.

- كاتيا جيرار كادويلي.. المريضة الحسنة التي اكتسبت شهرتها حين عملت في حملة إغاثة لدى زيمبابوي، واكتشفت بالصدفة غشاً رهيباً في أدوية الملاريا، التي تقوم بتصنيعها شركات أجنبية معروفة، لتنقذ ملايين المرضى هناك.. ومنحها مجلس الحكماء الإفريقي لقب الملاك الذي لم يمنح لأحد من قبل.

انتهى أيمن الحضاري من قراءة السير المختصرة للفرنسيات، ليعرج على صفحة أخرى في البحر العريض، ويريني صوراً لأولئك الكاتيات، التقطت في مناسبات عدة كحفلات الكوكتيل، أو أعياد ميلاد النجوم، أو حتى في مولات التسوق، وكن جميعاً لدهشتي، رشيقات وأنيقات، فيهن جمال أسطوري، وأكاد ألمس رقتهن تتقاذف من الشاشة لتضوع العطر في مقهى جَنِّي كله.. أخذ قلبي يدق بسرعة، وقرقرت الغازات في البطن، والحضاري يسألني:

- أي واحدة منهن صاحبتنا في رأيك؟

قلت من دون وعي..

- المريضة.

- لماذا المريضة بالذات، وكلهن ممكنات؟

- لا أدري.. في عيني تلك المريضة ما جعلني أحس بذلك.

- أوكي.. فلتكن المريضة إذن.. لكن سأطبع لك الصور جميعاً.. حتى تتأمل بقية العيون على مهل... وتخرج بانطباعتك النهائي.

ضغط على زر في لوحة المفاتيح، لتخرج إلى الواقع ثلاث صور فاتنة أخذت تتهادى على مهل حتى استلمتها بيدي. كانت لحظات حاملة، وفرصة لا تعوض لإشعال الخيال حين أعود إلى بيتي، وأرص تلك الصور على مائدة الغداء، لقمة من المغنية عاشقة لحم البط.. لقمة من الشاعرة اليهودية، ولقمة من الممرضة الحسنة، ثم أشبع. لن أتناول الفول هذا اليوم، ولن أخبر أحداً بالأمر، والحضاري أيضاً أوصيته ألا يخبر أحداً، خاصة الزعيم النبوي الذي قد يستولي على الكنز عنوة، يضمه إلى أجندة اجتماع صباح الغد، وربما يختارون المرأة الخطأ، ويبنون عليها مستقبل الحي. لو كانت البطة هي صاحبتنا، سيهاجر ميخا ميخائيل إلى فرنسا بكل تأكيد، هو الوحيد الذي يربي بطاً في الحي ويعرف كل مربيه في المدينة، لو كانت اليهودية التي تناضل ضد دولتها، سأحشد لها عدداً لا بأس به من الرجرجة الذين يتبنون النضال ضد سطوع القمر عند الضرورة، حتى تناضل بهم، ولو كانت الممرضة الملاك، فالأمر سهل للغاية: عندنا أدوية كل الأمراض مغشوشة، ابتداء من دواء الملاريا وانتهاء بدواء علاج قشرة الرأس، ومجلس الشعب القومى، يملك ألقاباً بلا حصر ينتجها بشكل يومي، سيمنعها لها كلها.. وقبل أن أخرج، همست في أذن الحضاري..

- هل هن متزوجات؟

- لم يذكر شيء عن زواجهن ولم تظهر لهن صور عائلية.. لقد بحثت كثيراً ولم أجد شيئاً. لكنني لم أياس وسأواصل البحث.

ثم بعد أن تذكرت قراءة حليلة الممرضة لكفي حين مددتها مرتعشاً مساء أمس، وذكرها لصاحبة العينين الواسعتين التي تراقب من بعيد..

- أيهن أوسع عينين في رأيك؟

دقق الحضاري في صور الكاتيات لدقيقتين، قبل أن يعود إلى
بوجهه..

- كلهن واسعات العيون لا فرق.

تركته لسياحته التي لا تنتهي إلا في آخر النهار، وخرجت. كانت
الكومبيوترات كلها مشغولة، فتيان يسبحون، فتيات يسبحن، وأحدهم
يضع سماعة على أذنيه، ويتحدث إلى طرف افتراضي، في هيام.

لم أرد أن أتحول إلى مقهى روماني الذي يحتضر الآن، بعد أن بقي
صامداً لمدة قرن منذ أن أنشأه المهاجر الإغريقي روماني قرياقوس، أو
غيره من محلات السوق، كنت متعجلاً لركوب أول حافلة إلى حي
غائب لأتناول غداء المتعة الذي أحمله في جيبي، لكنني وجدت ميخا
ميخائيل، وصديقه الجديد شاكر تعيس، يقفان أمامي فجأة، ويرجوانني
أن أجلس معهما قليلاً في ذلك المقهى.. بقيت عشرة أيام فقط على
إغلاقه يا علي.. كان ميخا يردد، وتلك الدموع الوليدة في عينيه
توشك أن تنسرب.. مصرف يا علي تصور.. من يملك مالاً في الأصل
ليضعه في مصرف؟، يردد والدموع لم تكن وليدة الآن لكنها ناضجة..
ألمي الوحيد في صاحبتي كاتيا.. أليس كذلك؟

لم أستطع طمأنته، لأنني لم أكن واثقاً من شيء.. وحتى لو كنت
واثقاً من أن صاحبتنا هي كاتيا البطة، فكيف أعلم أنها ستهاجر به؟.
مشروع عازف للأورج في الستين، كيف أطمئن ذلك الرجل؟. كنا
نتحدث عن لا شيء تقريباً، ميخا بلا توازن يبقيه مستقراً في حديث
ما.. لحظة في كنيسة العذراء يطلي جدرانها بالأبيض، لحظة عند الأب
مكارس يتأكد من كفاءة تنفسه ويطعمه بيديه، ولحظة عندي يسألني
بلا كلل.. سأهاجر أليس كذلك؟، وشاكر تعيس ساهماً بعقله بعيداً،
لدرجة أنه لم يحس بالعجز جوليا روماني، آخر وريثة للمقهى، حين

جاءت إلى طاولتنا، وحين بكت بحرقة، وحين أغمي عليها، وحين سقيناها قليلاً من ماء السكر، وحين عادت مرة أخرى نحلف طاولتها المرتفعة، لتدير مقهاها المحتضر. كان ثمة خليجي بالغرة والعقال يجلس إلى طاولة قريبة، وهوممازح فتاة سمراء مكشوفة الرأس، وترتدي ثوباً قصيراً. ثمة صينيون وكوريون من عمال النفط، الذين غزوا البلاد مؤخراً إثر اكتشاف النفط، يرطنون بلغتهم، ويتناولون حساء يتصاعد منه البخار.. رنات الهواتف المحمولة بمختلف التناقضات، بعضها مقاطع من أغنيات، بعضها صياح ديوك، وبعضها ضحك وآهات، التلفزيون المعلق على الحائط، مفتوح على قناة الحقيقة ومريض بالسرطان يحكي رحلة شفاء مشكوك في أمرها، وعبر زجاج المقهى كنت أستطيع أن أشاهد التمثال المتهم لأحد الزعماء التاريخيين. سألت ميخا..

- ما بال صاحبك شاكر تعيس؟.. هل هو مريض؟

- لا أدري.. لعله سقط في الحب.

ومن دون وعي مددت يدي إلى جيبي، تحسست خامات هيامي الخاص، وخفت أن يكون تعيس قد تخيل كاتيا الفرنسية أيضاً، وابتدأ يخطط لعشقها.

لم أفتح باب بيتي لأستمع بعدم صريره، الذي عدده إنجازاً رائعاً وعممته على الحي كله.

لم أفرد صور غدائي الشهية على الطاولة، وأبدأ في تناول لقم الحسن الفرنسي من كاتيا البطة حتى كاتيا الممرضة. وجاءتني تلك الرسالة على هاتفي الجوال، كانت من أحد عيال النبوي، ولعله الكبير الذي فتح لي باب البيت، وهو يحتلم هذا الصباح.

- انتقل إلى رحمة الله فجأة، والدنا حكيم عبد القوي النبوي عن ثمانية وستين عاماً.. إنا لله وإنا إليه راجعون..

وقبل أن استوعب الخبر تماماً، انهمرت على هاتفي رنات الرسائل لتؤكد.. من حليلة المرضعة قارئة المصائر، من عركي صاحب البقالة، من عمر الحلاق، وفرفور المغني، وحتى من المشرّد كنكل ساكن الشوارع، الذي لا أدري من أين حصل على هاتف ورصيد.

على باب بيته الذي ما زال يحمل صرير المفاصل، لم يشف منه، كان ثمة تراحم ثقيل: رجال يمدون أيديهم إلى الأمام لقراءة الفاتحة، ويسحبونها حتى قبل أن تبدأ السورة، نساء ينحن كعادة النساء، حتى لو مات جرد. أطفال أتوا عشمًا في ثريد أو قطعة لحم أو ورك من أورك الدجاج، ققط وكلاب تتشمم الجو، وتفر. وعلى طول الشارع ثمة من يسأل، ومن يجيب. قلت لولده الكبير، الذي ما زالت في ثوبه بقايا من احتلام الصباح: أحسن الله عزاءكم، قلت لأخيه الأصغر: أحسن الله

عزاءكم، وكدت أقول لبناته، لولا أنني تذكرت أن النبوي كان بلا بنات.. فقد ماتت امرأته منذ عشر سنوات، وفي بطنها بنت لم تر الحياة. وفي موقف فريد من نوعه، وجدت الأممي موسى خاطراً، يشد على يدي بقوة، وهو يردد: أحسن الله عزاءكم، وكانت المرة الثالثة لي منذ عرفت موسى، أن أمسك يد التقارير تلك. اقتربت من الولد الكبير بعد أن خف التزاحم حوله، واتجه الناس إلى حصير من السعف فرش على مقربة من البيت، ليجلسوا عليه، سألت:

- ماذا حدث يا مبدع؟

كان اسمه مبدع، وكان الوحيد في البلاد كلها الذي يسمى بذلك الاسم الذي جاء به النبوي من بلاد الشام حين زارها في شبابه ضمن وفد من مدرسي التاريخ..

- لا شيء.. مات أبي وانتهى الأمر..

قالها بلا حزن ولا دموع ولا تغيير في صياغة الوجه، ولا أي رغبة في استبدال ثوبه المتسخ، ليظل في العزاء ولداً كبيراً، وكأنه يقول.. سقطت ذبابة على كوب شاي وغرقت.

لم أشبع من تلك الركافة غير المألوفة في مثل هذه الظروف، خاصة في حي ممتلئ بالثوابت مثل غائب يعامل فيه كبار السن بلغة أكثر احتراماً، واتجهت إلى الولد الصغير..

- ماذا حدث يا سوكارنو؟

كان اسمه سوكارنو، وهو الوحيد أيضاً في البلاد الذي يحمل اسم زعيم آسيوي سابق، ربما تأثر به النبوي بشدة في شبابه البعيد. كان سوكارنو سخيّاً.. وزودني بالتفاصيل كاملة..

- كان أبي يكتب الشعر حين مات. كان من عادته أن يغيب عن الوعي حين يكتب الشعر، يشخر ويخرج الزبد من فمه،

لكن قلمه لا يكف عن الكتابة، وفي بعض الأحيان كان الشعر يخرج ملحناً لأن قدميه كانتا تتحركان بإيقاع منتظم أثناء الكتابة.. وحين يفرغ، يصحو من غيبوته.. ليكتب تاريخ القصيدة فقط.

- وماذا حدث هذه المرة؟
- توقف القلم عن الكتابة، لكن أبي لم يصح.
- إنا لله وإنا إليه راجعون.. لكن ماذا كتب في قصيدته الأخيرة؟
- أبيات ترحيبية بالفرنسية كاتيا كادويلي التي سترور حيناً.. سماها كاتيا الملاك.. أشاد بفتنتها، وقوامها، والكعك، والحلوى التي ستصنعها لسكان غائب.

خفق قلبي في تلك اللحظة بسرعة مخيفة، قصيدة ترحيبية تصف فتنتها وقوامها، ويسميتها الملاك الذي كان منحة رسمية لكاتيا الممرضة من مجلس الحكماء الأفارقة.. هل في الأمر مؤامرة ما؟، وهل غدر بي أيمن الحضاري بعد أن خرجت من عنده ورن برصيد ليحدث النبوي بأمر اكتشافه في الشبكة العنكبوتية؟.. لا أظن ذلك.. لأن سيرة الكعك والحلوى لم ترد أبداً في جوجل ولا أي باحث آخر أشركه أيمن في التقصي.. إنها مجرد مصادفة بلا شك.

- وأين تلك القصيدة؟
- عدت أسأل سوكارنو الذي بدأ يتهيأ لتقبل العزاء من ثمانين رجلاً هبطوا من أحد اللواري فجأة.. كنت أحس بالفضول لقراءتها، لاكتشاف نوايا رجل ميت لا أظنها كانت نوايا حسنة.
- مزّقها أخي مبدع.. فهو يكره الشعر.

لم تكن لي رغبة في تسخير قلبي لسب أحد، فلم أسب ذلك المبدع غير المبدع، فقط هممت أن أسأل سوكارنو عن تلك الظروف

الطارئة التي كانت عندهم في الصباح، وجعلت والده يتوكل على عكازيه حتى الباب ويطردي، لكنّ المعزين الثمانين هجموا على الولدين وهم يمدون أيديهم بسورة الفاتحة، وكان في وسطهم ملتح، ثوب قصير وصوت جبار، قدموه باسم الشيخ أسامة، وسمعته يصرخ:

- الغريق شهيد.. المحروق بالنار شهيد.. الساقط من حالق شهيد.. والميت أثناء كتابة الشعر، أيضاً شهيد ما لم يكتبه في معصية.

وكان موت كاتب الشعر شهيداً، ترفاً جديداً أسمع به لأول مرة. تناوبنا غسيل النبوي أنا وشاكر عيس، باعتبارنا من أحبابه المقربين، ولم نكن في الحقيقة كذلك لأن النبوي كان متضحماً برعاية تشد احترام الناس، لكن بلا حب. ورافقنا في تلك المهمة الشاقة، القبطي ميخا ميخائيل. كانت فكرته أن يتعلم غسل موتى المسلمين، وتوابعه من الدعاء والبسملة، ليضيفها إلى سيرته الذاتية، حتى إذا ما فشلت الحجره إلى فرنسا، تقدم إلى إدارة المصرف الإسلامي الذي سيقام على أنقاض مقهى روماني، فرمما يعينونه غاسلاً لموتى الموظفين الذين سمع بأنهم سيكونون بالآلاف.

كانت جنازة النبوي مهيبة حين خرجت من بيته، جنازة بلا حزن ظاهر، لكنها جنازة زعيم، كان فيها ثلثا سكان حي غائب، وعدد كبير من سكان الأحياء المجاورة، وبعض أعضاء اللجان الشعبية المحلية للأحياء كلّها، الذين يتقصون أخبار الموت أكثر من تقصيصهم لأخبار الغلاء، وانعدام السلع، وينحشرون حتى في جنازة غراب. سرنا بها في المجاري والحفر غير عابئين بلفح الذباب، والماء الآسن المتراكم على كل باب، وتلصص النساء من خلف كوى البيوت. كان النعش ثقيلًا بلا شك، نعش رجل يزن خمسة رجال

بالغين، وثمانية صبيان مراهقين، لكننا أحياناً كنا نحس به خفيفاً كأنه سيطير من بين أيدينا، وأقسم البعض، أنهم عائلة الجن آل مسيكة، يشاركون في التشيع بحمل النعش من حين لآخر. اقترب مني عركي صاحب البقالة ليهمس في أذني بأنه لن يطالب عيال النبوي بسداد ديونه المتراكمة في الدفتر، لكنه سراسل جمعية المروعة الخيرية التي مقرها جدة في السعودية، ولها مكاتب عدة في البلاد، ليحدثهم عن ماسح سيارات فقير اسمه النبوي، دهسته سيارة مشتعلة أثناء مسحها، وترك خلفه زوجة شابة، وعيلاً رضعاً. كان يريد شهادتي حين يطلبون شاهداً. اقترب الأمي موسى خاطر من وجهي، لينبهي بأن أحد جيوب ثوبي به انتفاخ غير معهود، وكان لسوء حظي أن صور الكاتيات قد نفخت الجيب قليلاً. مشى معي شاكر تعيس عدة خطوات وهو ساهم بعقله بعيداً، ثم تأخر عني لينضم إليه القبطي ميخا، وهو يشاركننا التشيع، مضيفاً فقرة أخرى إلى سيرته الذاتية.. الملتحي أسامة أوقف النعش عدة مرات، ليتحدث عن فناء الدنيا وعذاب القبر، ونعيم الآخرة للمتقين. قال أيمن الحضاري إنه سينشر النعي في موقع الإخوة أونلاين الذي يدخله الناس من شتى بقاع الأرض، وسيحضر كل تعقيبات المعزين مطبوعة، وتتم فرفور المغني الذي كان يابساً بلا هيئة فنية:

- هل صحيح إن النبوي كان مدمناً لعقار الفياغرا؟

ضربته على ظهره، فابتعد مزجراً، واعتبرها إهانة لا تغتفر لمغن كبير مثله. لكنه ما لبث أن عاد مبتسماً ليخبرني بأنه يضع اللمسات الأخيرة لأغنية اسمها كاتيا الرائعة، كتبها ولحنها بنفسه. ولم أفرع هذه المرة، كنت على يقين من أنه لو كانت ثمة أغنية من تأليف فرفور وتلحينه، فلن ترى النور قبل أقل من عشر سنوات. من بعيد، كنت

أرى عمر الحلاق يتحدث إلى شاب طويل شعر الرأس، ولعله كان يفاوضه لقصه في زمن ترنخت فيه مهنة الحلاقين بسبب رعونة الشباب، ومن بعيد أكثر، بدت صفوف أشجار المسكيت المألحة التي تحيط المقابر.

دفنا النبوي في قبر أدخلناه إليه بصعوبة، لكننا لم ننته بعد، كانت أيام العزاء مهلكة للغاية، أيام أنستني غداء الصور الفرنسي الفاخر الذي خبأته في بيتي حين عثرت على فرصة للفرار إلى البيت، ولا أدري متى أتذوقه، أنستني في الواقع تقصي أخبار جديدة من مبنى المحافظة، وكان أكثر ما أحشاه أن تأتي الفرنسية في تلك الأيام بالذات، فتجدي يابساً من دون عاطفة، ومتسخاً من دون هندام ألتقيها به. ناديت على مبدع النبوي عدة مرات ونبهته إلى ثوبه الذي ألح في وسطه كل يوم بقعة جديدة، فلم يكثر، وشممني في إحدى تلك المرات، وحرضت أئمن الحضاري على الفرار من بيت العزاء مراراً، ومتابعة البحث والتقصي عن أولئك الكاتبات وخصوصاً إن كن متزوجات أم لا.. رنت عديلة، تلك التي غابت تماماً عن ذهني، عدة مرات بلا رصيد، ورددت عليها في إحدى المرات مستخدماً رصيدي، لأكتشف أنها أختي الوحيدة عديلة جرجار، أم الولد الذي يرسل لي مصاريف شبه شهرية من منطقة الخليج، والتي تعيش في مدينة أخرى منذ زواجها وتتواصل معي من حين لآخر برنات هاتفية بلا رصيد، كانت تود أن تسأل عن حالي، وتخبرني بأنها عثرت لي على أرملة في الخامسة والخمسين من العمر، سيسرها حتماً أن تقترب بي، وكانت بذاءة كبيرة أن اكتب على رقمها في الهاتف "أختي عديلة"، حتى لا تضيع من ذهني مرة أخرى، وأن أعدها بالتفكير في أمر أرملتها المسنة، وكان وعداً كاذباً بلا شك.

أخيراً أتيح لي أن انفرد بغدائي الذي مضت على اقتنائي له ثلاثة أيام كاملة، هي أيام البكاء الكاذب على الزعيم النبوي، الذي ترك الحي بلا مايكرفون متمرس لإذاعة الأخبار.. وترك ولدين أحدهما مبدع مزيف، والآخر يحمل اسماً غير مهضوم، لا في حي غائب ولا في البلاد كلها. تحدث الناس كثيراً عن وجود زوجة سرية تنحدر من إقليم دارفور في غرب البلاد، جاءت تطالب بميراثها، وتحدثوا عن بيوت كان يملكها في أحياء راقية، ولا يعرف عنها أحد شيئاً. قالوا كان يخطط لشراء حافلة لنقل الركاب، وقارب لصيد السمك، وحصة من أسهم شركة عربكو المتخصصة في إنتاج الملح، لكنها كلها أخبار لم تكن ترقى إلى التصديق، فقد كان النبوي أحد الفقراء الكبار في حي بلا ثروة.. فتحت باب بيتي واستمتعت بعدم صريه كما أستمتع بأغنية، استحمت حماماً منعشاً بصابون زست الفاخر الذي أستخدمه لأول مرة، فركت أسناني بفرشاة الأسنان الحمراء الجديدة، فردت صور الكاتبات على طاولة حرصت على تلميعها أولاً بالماء والكولونيا، ولم أنس أن أرهف أذني متسمعاً، حتى إذا ما ضج صوت دراجة موسى أخفيت الغداء الكنز. وكان هاتفي مغلقاً في وجه الرنين. لقمة من البطة المغنية، لقمة من الشاعرة اليهودية وعشرات اللقم من الممرضة الملاك.. هذه هي بلا شك، لأن اللعاب سال أكثر عند صورتها، وغازات البطن شاركت أكثر حين تذوقت أول لقمة من طبقها.

الطرقات هذه المرة على الباب أعرفها جيداً، إنها طرقات الجميلة جداً سلافة، وكنت على يقين بأنها جاءت لتعزييني في وفاة النبوي، الذي لا أعرف لماذا يعزييني الناس فيه. فردت ملاءة نظيفة غطيت بها الصور، ونهضت كي أفتح. كانت تقف بالباب مزركشة بمكياج عنيف، على أصابعها صبغة أرجوانية، وعلى فمها ابتسامة بلا تفسير، لم

أدعها للدخول لأن العزاب الشرفاء في حي غائب لا يدعون امرأة للدخول أبداً، وحتى لو دعوتها فلن تدخل، تعتبرني في كثير من الأحيان مجنوناً يستحق أن يلسع بكهرباء المصححات، وفي القليل منها جنتلمان، تستشير في معضلاتها. لم تمد يدها بالسلام، ولم تقل "أحسن الله عزاءك" لكنها همست:

- قل لي يا علي.. كم عمر شاكر تعيس في رأيك؟

- لماذا تسألين؟

- لا أدري.. سؤال خطر لي.

في الحقيقة لم أكن القابلة التي أخرجت شاكر تعيس إلى الدنيا، ولا كاتب الصحة الذي وثق شهادة ميلاده لأعرف عمره بالتحديد.. وكنت مرتبكاً ومتعجلاً لمعاودة التهام الصور.. قلت بعد أن تصفحت ذاكرتي الحافظة كل مصائب الحي التي عاصرتها، ربما أكثر من السجلات الرسمية، وتذكرت صيحات أمه التي ولدته في يوم انقلاب عسكري، وحظر تجول، شل البلاد كلها، وكان العثور على قابلة لإخراجه إلى الدنيا، أمراً شديداً الصعوبة:

- تسعة وثلاثون عاماً وشهران، وستة أيام.

- هل أنت متأكد يا جرجار؟

- نعم.

لم تقل شكراً، ولم أطلبها بشكري، ولم تضيف حرفاً آخر، لكن ابتسامتها ملأت الوجه كله، وانطلقت فارة من أمامي.. ماذا يفيد سلافة أن تعرف عمر الرجل الذي لم يذق ماء زمزم حين كان في متناول يد الجميع؟ الرجل الذي تزوج ثلاث مرات في أحياء أخرى بعيدة عن حي غائب من دون أن يدعو أحداً إلى زواجه، ولم تمكث معه زوجة واحدة من أولئك الثلاث أكثر من شهر، لأسباب لا يعرفها

أحد؟ كان يكسب قليلاً من أعمال السمسرة في الأراضي ولم يبد لي
في أي يوم من الأيام مخنثاً تفر من فراشه النساء، غداً سأجد تفسيراً
لكل ذلك.. قلت في نفسي، أغلقت الباب، وعدت إلى وجبتي الفرنسية
أكمل التهامها.

-5-

كان الحكومي مبروك جالساً على مكتبه الواسع في مبنى المحافظة، حين دخلت عليه بلا استئذان، بجانبه سكرتيرته الإثيوبية التي كانت عاملة في محل لتصفيف الشعر في وسط السوق حين التقطها، أدخلها معهداً لمحورطانة الأحباش من اللسان، ودورة لتعلم الكمبيوتر على حسابه، ووظفها كسكرتيرة، لا أدري ليسترخ في تفاصيل وجهها المليح حين يتعب، أم ليمضي معها إلى أكثر من ذلك؟ وأذكر حين رأيته أول مرة، وهي تجت في شكل عرق غزير، وغمزات أصابت عيني، وقرقرة شديدة لغازات البطن، ساعتها غربي مبروك، قال لي في غلظة: لا تغازل ملكة يا علي.. لا تغازلها أرجوك يا جرجار.. اعتبرها حائطاً بلا طلاء، أو تلك الثلاثية التي بها ماء بارد.

كان صعباً جداً أن أتخيل ملكة حائطاً بلا طلاء، أو ثلاثة باردة، لكنني استسلمت لرجائه، ومنذ ذلك اليوم كنت أراها كلما زرت، لكنني لا أرى سوى صلادة الأسمنت، وبرودة الثلج التي لم تكن قط حقيقة..

صرف السكرتيرة بإشارة من يده من دون أن يوقع ورقة واحدة والتفت إلي:

- سمعنا بوفاة الأستاذ حكيم النبوي.
- نعم.. توفي منذ أربعة أيام فجأة.
- إنا لله وإنا إليه راجعون.

كانت أعلى رأسه صور عديدة تمثل رئيس البلاد حين افتتح محطة لتحلية مياه الشرب في المدينة، ولم يخرج من جوفها ماء حلو بتاتا، حين تفقد أنابيب النفط ساعة إعلانها أنابيب نفط عاملة، وحين خرجت من فمه ابتسامة عريضة، وهو يحاور واحداً نجا من عبارة غرقت في البحر الأحمر.

- ومن تظنه مناسباً ليخلفه في تأصيل الإشاعات ونشرها في الحى؟

ابتسمت، لكن الحكومى لم يتسّم أو يغير تعابير وجهه، وفي لحظة استغراب شديد تملكنتي، أخبرني بأن تأصيل الإشاعات ونشرها في الأحياء الفقيرة، مهنة رسمية لدى الدولة، وأن النبوي كان يتلقى راتباً شهرياً على ذلك، النبوي ينشرها، وموسى يكتبها تقارير.. وبقية الأجهزة تصفح التقارير لإجراء اللازم، هل فهمت يا جرجار؟ أنا أخبرك بذلك لأنك صديق.. هل تفهم؟

لم أفهم جيداً، لكنني خفت، بدأت أهيأ لرفض وظيفة النبوي الشاغرة التي قد تعرض علي في تلك اللحظة، لكن مبروك تجاوز تلك النقطة إلى نقاط أخرى كانت هامة بالنسبة إلي:

- أظنك جئت لتسأل عن مستجدات في خبر الفرنسية كاتيا..
أليس كذلك؟

- بالضبط هذا ما أريده.. هل من مستجدات؟

- نعم.. إنها قرية من هنا.. وستأتي في غضون يومين أو ثلاثة..
هي الآن في زيمبابوي للقاء أحد الحكماء الأفارقة بناء على دعوة منه.

- هل هي ممرضة اكتشفت غشاً في أدوية الملاريا؟
صرخت وقلبي يخفق بشدة.

- كيف عرفت؟

سألني الحكومي، وعيناه تكادان أن تفارقا محجريهما من الدهشة.

- كيف عرفت؟

- من التكنولوجيا..

قلتها وتمنيت أن يفهم، وقد فهم.. قال.. سأحرك حين تصل حتى تأتي لاصطحابها إلى الحي بأي طريقة تشاء حتى لو صحبتها ماشياً على قدميك.. لا دخل للحكومة في زيارتها، ولسنا مسؤولين عن شيء أكثر من التقاطها من المطار وتسليمها لكم. استأجر لها غرفة في بيت به نساء مسنات، وساعدها إن احتاجت إلى مساعدتك في أي لحظة.. هل هذا واضح؟

ثم سلمني رزمة من المال ملفوفة بورق شفاف أخرجها من جيب في قميصه متعدد الجيوب، ولا أدري أكانت من ماله الخاص، أم من بند حكومي منسي يستطيع مغالته متى شاء... خبأت المال في جيب تحتي بثوبي النظيف الذي أستخدمه في المناسبات الجلية كالأفراح والأتراح، وزيارات المحافظة، والمستشفيات، وكدت أبتسم حين أوصاني بكاتبا.. وهو لا يدري بالطبع أنها موجودة في دمي وبيتي، وأهتم بها كما لا أهتم بشأن آخر، ولولا موت النبي المفاجئ، وعزاؤه الذي استهلكنا ثلاثة أيام لكنت قد أنجبت منها أو لاداً حتى الآن.

تقيأت للانصراف حتى ألغى الكاتبتين الأخريين، البطة واليهودية، وأنفرد بالمرضة الملاك، حين استوقفي مبروك، وكانت في صوته رائحة أمر:

- تعال إلى المخزن لنلعب دور دومينو.. تعال.

كان المخزن الذي ذكره، غرفة ملحقة بمكتبه لم أدخلها من قبل، ولا كنت قد لاحظت وجودها أصلاً. فتحها بمفتاح ذهبي أخرجه من جيبه، وتأخر حتى دخلت ثم أغلق الباب من خلفه. كانت أمامي غرفة لا تشبه اسمها، مرتبة بشدة، بها طاولة من الزجاج اللامع، وعدة كراسي جلدية مريحة، ولحاف من الإسفنج مفروش على الأرض بعناية، إضافة إلى خزانة من خشب الزان بإها نصف مفتوح. وكانت ثمة علبة أنيقة من القטיפه تحتوي على حبات الدومينو، موضوعة على الطاولة.

اجلس واهزمي.. اجلس يا عجوز.

قال ويدها توضبان قطع اللعب. لكنني لم أكن معه، فقد نحت عبر الباب نصف المفتوح للخزانة الخشبية، ما بدا لي معرضاً نساءً ممتلئاً بالشبق حتى القاع. ثمة قمصان نوم حمراء وزرقاء وبنفسجية، حمالات صدر منتفخة كأنها تحتوي صدوراً يانعة، وتفصيل أخرى لم أحدد معالمها جيداً، لكنني تخيلتها بجدارة. اهزمت في الدومينو خمس مرات وخرجت، وقد صغر الوطن في عيني لدرجة أنني فكرت في كتابة رسالة فورية للرحالة حاكم عذابو، وإخباره باستقالي من حزب "وطنك الكبير" الذي أسسه، وكنت أفخر بانتمائي إليه فيما مضى. أحسست بمثاني توشك أن تنقبض، فقد نسيت تدريبها في الأيام الأخيرة وسط الأحداث، سعلت بشدة لأنني نسيت تدريب رثتي أيضاً، وانزلقت في طريق ضاج. في العام الماضي، التقت الناس عن طريق البلوتوث المثبت في الهواتف المحمولة، شريطاً عريداً لضابط كبير في الجيش يرقص في أحضان مغنية رخيصة. في العام الماضي أيضاً، قبض سكان أحد الأحياء الفقيرة على رأسمالي بارز، كان يتردد بشراهة على بيت به أطفال قصر. وتأتي دردشات المجالس

يومياً بما يجعلني أنا علي جرجار، مجرد جرد تافه في وسط الصعاليك الكبار. لم أرد أن أنخيل ملكة، عاملة تصفيف الشعر الإثيوبية، في واحد من تلك القمصان الملتهبة، وعلى صدرها حمالة منتفخة، لكن للأسف تخيلتها.. لم أرد أن أفكر في جرائر صديقي مبروك التي قد تكون جرت في مخزنه الأنيق، لكنني فكرت. كنت قد اقتربت من كنيسة العذراء، حيث ترقد ذكريات نارية للقبطي ميخا ميخائيل، لكنني لم أجدها، عثرت على أرض خلاء مسورة بالخشب، وضاجة بأصوات آليات تحفر أو تزيج التراب بعيداً، وفي أحد أركانها لافتة ضخمة كتب عليها.. مشروع برج التوبة.. مكاتب وشقق سكنية، للحجز والاستعلام.. اتصل. لم أجد رابطاً بين الاستثمار والتوبة، وأحسست بخسارة القبطي حين ماتت ذكرياته كلها ودفنت تحت الأرض. وخسارته الأكبر لأن كاتيا القادمة كأمل ضعيف، ليست عاشقة لحم البط. لن أترك ميخا القبطي بأي حال من الأحوال، لن أتركه ليموت أو يجن. قد أحاول تقييده بطريقة أو بأخرى، وقد آخذته إلى أحد المساجد الكبيرة في يوم جمعة مزدحم ليغير عقيدته، ويكسب بعض التعاطف، ثم أحرص عركي صاحب البقالة الثعلب ليتخذ رسالة فريدة وعاجلة إلى إحدى جمعيات الخير في الخليج، تحكي عن مسلم جديد اسمه مختار، يريد أن يحج ويعتمر حتى تكتمل عقيدته. عبرت بالقرب من مقهى روماني العتيق، وكان بلا زجاج، ولا رواد، ولا لافتة تحكي تاريخ ميلاده. حوله عدد من الآليات الثقيلة أيضاً، وصاحبته الأخيرة جوليا راقدة أمامه، وبعض المتطوعين بمن فيهم ميخا ميخائيل، يسقونها الماء.. أغراني المال الذي في جيبي، بشراء قمصان وبناطيل جديدة تلائم تطور الدم في جسدي، فدخلت إلى متجر الإغريقي كوستا واشترت. أغراني المال

مرة أخرى، فانتعلت حذاءً جديداً من الجلد الأصلي اشتريته من محل باتا الذي كان يرتاده من يملكون خامات ارتياده. أخذت أحصي في ذهني عدد البيوت التي فيها نساء مسنات في حي غائب لأحشر كاتيا الملاك، وسطهن، وعثرت من دون معاناة على بيت حليلة المرضعة الذي به عدة غرف تطل على الشارع مباشرة، وتؤجرها المرضعة لطالبي قراءة المصير، الذين قد يأتون من مدن أخرى، ولا يملكون أقارب في الحي، وقررت أن استأجر غرفة هناك.. كانت فرصة لاقتناص كاتيا متى ما أردت، وفرصة للمرضعة أن تقرأ لأول مرة في حياتها كفاً أوروبية.. وربما تتطور أدواقها بعد ذلك.

كانت توجد بالسوق عدة أكشاك لبيع أشرطة الموسيقى بلا رقابة. يأتي أصحابها بنسخ أصلية من تلك الأشرطة، يستنسخونها بلا كلل، ويبيعونها لمن أراد وبسعر النسخة الأصلية. في تلك الأكشاك يمكنك أن تعثر حتى على بوي جورج، أو علي فرتكاري مستنسخاً، ومبعثراً على مائدة خشبية غاية في القذارة. وقفت أمام أحد تلك الأكشاك، وكنت أعرف صاحبه، حيث أمر من حين لآخر لشراء شريط من أشرطة مطرب قديم، أو الاستمتاع بضحكات ثريا التي كانت فتاة ضاحكة تساعد صاحب الكشك في نسخ الأشرطة وبيعها. لم تضحك ثريا حين لمحتني، كانت متجهمة، ترتدي ثوباً أسود، وتجلس ساكنة بينما الدسوقي صاحب الكشك يعمل على آلات تسجيله في سرقة شريط جديد.

- سلام.

قلتها وانتظرت ضحكة ما، لكن الدسوقي رفع عينيه عن شريطه:

- ارفع الفاتحة لثريا يا جرجار، أختها ماتت منذ يومين.

مددت يدي لأقرأ سورة الفاتحة، وسحبته قبل أن تبدأ
السورة، وثريا فعلت كذلك، في حركة ميكانيكية اشتهرنا بها في
العزاءات.. نقرأ الفاتحة ولا نقرأها حقيقة، نترحم على الميت، وفي
الواقع لا نترحم عليه. طلبت من الدسوقي شريطاً للمغنية الفرنسية
كاتيا كادويلي البطة، فأعطاني ثلاثة أشرطة من دون قرش واحد،
وهو يقول:

- سوقها كاسد عندنا.. لا أحد يحب صوتها.. كما ألها تغني
بالفرنسية التي لا يفهمها حتى الذين يدرّسونها للطلاب، لكن
قل لي من أين تعرفها؟

لم أرد.. وانسحبت تاركاً ثريا الضاحكة لحزنها المؤقت،
والدسوقي صاحب الكشك لدهشته التي حتماً ستظل عالقة به إلى أن
يأتيه زبون جديد.

متى كانت آخر مرة ركب فيها عربة للأجرة إلى حي غائب؟
بل متى كانت أول مرة؟

في الواقع لم تكن هناك لا مرة أولى ولا أخيرة. كانت سيارات
الأجرة ترفاً لم أحلم به يوماً، وأنا الذي أعيش على تقاعدي البسيط،
وما يبعثه لي ابن أختي عذيلة من الخليج، حين يتذكر انه ابن أختي..
لكن بنقود مبروك التي خصصت لتبدأ بها الفرنسية حياتها في حي
غائب، وبما أحمله من قمصان وبناطيل، وحذاء من ماركة باتا، فقد
استسختف الباصات والحافلات، وما تحمله من جرب وروائح، بصقت
عليها كلّها، وأوقفت سيارة للأجرة جديدة ومكيفة، كانت من ماركة
هيونداي الكورية التي غزت البلاد مؤخراً، وقضت على سطوة الحديد
الياباني الذي سيطر على السوق أكثر من نصف قرن. ولأن ركوب
سيارات الأجرة، انفراد بين شخصين: السائق والزبون، فقد كان لا بد

من ابتسام، وضحك وتعارف وثرثرة، وفي النهاية صداقة وثيقة قد تدوم طويلاً وقد تنتهي بانتهاء المشوار.. وهذا ما حدث لي، فقد ابتسمت وضحكت وثرثرت في كل شيء، لكي هبطت من السيارة في حي غائب، وذهني حال حتى من رائحة زهرة القرنفل التي كانت بيد السائق يستنشقه من حين لآخر.

أعطني أعطك.

الكتابة العريضة بالفحم عل باب حليلة المرضعة، قارئة المصائر.
ويدي ثابتة تطرق الباب.

رأني زهورات الإثيوبية فاندلعت شياطينها في وجهي.

- اذهب.. ستموت قبل أن ترى الفرنسية... اذهب.

كانت مسنة بالفعل، ربما على حافة الستين أو بعد ذلك، ولم
تنس أبداً ليلة الزفاف تلك التي لم تر بعدها ليلة تخوضها كأنتى. كان
وجهها عظماً يابساً، شعرها مصبوغاً بجناء لم تعده أسود، لكنها
شوهت هيبة بياضه.. ويداهما اللتان لم ترحمهما الخدمة طيلة أربعين
عاماً، ترتعشان. أشفقت عليها بشدة في تلك اللحظة، وأشفقت على
نفسي أيضاً لأنني كنت أكثر منها انخاء، فقط أحاول أن أسير منتصباً،
وأكثر ييساً في الجلد، لكن أعوضه بري العاطفة. رمت بثقلها على
الباب تغلقه، ورميت بثقلي لأبقيه مفتوحاً، وهزمتها.

بلهاء.. صحت..

أعرف.. ردت.

كانت المرضعة في لحظة استرخاء لذيد كما بدا لي، لأنني سمعتها
تغني في مرج واحدة من أغنيات المرحوم كرومة، تتغزل في بنات جيلها
وتصفهن بالملكات والأميرات، وسمعتها تقول بصوت ناعم لا يشبه
صوتها الوعر الذي أعرفه:

- لا تدخلني أحداً يا زهورات.. لا تحضري لي كفاً بائسة.. أرجوك.

- إنه جرجار يا مرضعة.

صاحبت الخادمة.

- قولي له أن يجفف كفه من العرق، ويأكل بلا عسر هضم ثم يأتي.. أبعدي عني ذلك القرد.. هل سمعت؟..

في الماضي لقبوني بالثعلب، وزير النساء، والمجنون، وصاحب الضرس الكبير، لأنني ظللت أتوجع من أحد أضراسي خمسة عشر عاماً حتى سقط، لكنها كانت المرة الأولى التي يلقبني فيها أحد بلقب القرد. تجاوزت عن ذلك اللقب بسهولة، ووقفت أمام المرضعة بعد أن أزعجت الإثيوبية من أمامي، لتفقد استرخاءها اللذيذ، وتستعيد صوتها الوعر:

- لا نستقبل أحداً في مثل هذه الساعة يا جرجار.

- لكنني لم آت لقراءة كفي.

- إذن ماذا تريد من امرأتين لا تنفعان حتى نائحتين في الموت؟

اعتدلت في جلستها، ضامة لحمها العجوز إلى بعضه، وتاركة خصلتين من شعرها المتهديم تنزلقان على جانبي وجهها. كانت عيناها ضيقتين، وفيهما كحل، وأظنها شمت المال الذي يرقد في جيبي، أو لاحظت حركة يدي التي تربت على ذلك الجيب باستمرار، لأنها قالت بسرعة:

- قتلت قتيلاً، أم سرقت مسروقاً؟

- لا هذا ولا ذاك.

قلت.. وباختصار شديد أخبرتها بنيتي في استئجار غرفة في بيتها لكاتيا الفرنسية، واحدة من تلك الغرف جيدة التهوية التي تطل على الطريق، وبقربها حمام، وبشرط أن يكون أثاثها معقولاً، وملاءتها

ووسائدها جديدة لم تستعمل، ولم أنس أن أخبرها بأن ذلك أمر من الحكومة.

وقفت على قدميها بصعوبة، وانتعلت حذاء واطأاً أتاح لجسدها الممتلئ أن يتراشق أمامي، أحسست بها راضية لكن ليست في كامل الرضا، أخذتني إلى غرفها الست التي كانت متراصة كقطار، وبين كل اثنتين منها حمام مطابق لحمامات حي غائب، لا ماء منتظم ولا جلسة مريحة تعين على الإخراج. لم يكن في تلك الغرف ساكن واحد، وقالت المرضعة، إن شح المطر وكساد الزراعة في قرى ومدن الجزيرة الخضراء، قد أثر على حركة زبائنها الذين يأتون من بعيد. قالت: افتقدت أجولة الدخن والعدس، وافتقدت العمدة مرزوق صاحب الحلال، الذي ما غاب من قبل. لم تكن ثمة غرفة مناسبة حتى لإسكان راهبة بوذية، لكن المرضعة اختارت واحدة بها سرير متسع، وخزانة صدئة، وطاولة تتسع لشخصين، وأكدت بأنها ستجعلها مناسبة في الحال، ثم صرخت: يا زهورات.. يا بنت إثيوب.. يا لقيمة..

استأجرت الغرفة على الفور، دفعت إيجار شهر كامل، وأنا لا أعلم كم يوماً ستقيم الفرنسية فيها. لكن لا مشكلة، قد أستغلها في أغراض أخرى إذا رحلت كاتيا مبكراً، وقد تكون الغرفة التي أقضي فيها جزءاً من شهر العسل، إذا سارت الأمور كما رسمها خيالي. كانت الإثيوبية زهورات تترنح كطير ذبيح، وفي أكثر من مرة نبهت المرضعة إلى خطورة إسكانها للأجانب في بيتها. تحدثت عن تفجيرات كبرى حدثت في بلاد العرب، وشاهدتها في أخبار الفضائيات، وتحدثت عن خلايا تنظيم القاعدة النائمة في كل مكان، والتي يقولون إنها تستيقظ على رائحة الأجانب. لم تكثر المرضعة لثقافة خادماتها، نهرتها بصوتها الودع:

- كفى.. كفى يا زهورات قبل أن أعرض ثديك مرة أخرى.

فهرولت الخادمة من أمامنا، وهي تمسك بشديها.

دعيتني حليلة إلى كوب شاي، أعدته بنفسها في بطء وتلذذ. سألتني عن موعد وصول الضيفة.. فقلت إنني لا أدري بالتحديد. عن مدة بقائها.. قلت لا أدري أيضاً. كانت المرة الثانية لي في دخول ذلك البيت، والمرة الأولى التي أجلس فيها تلك الجلسة الودودة برفقة امرأة طالما خفت من وجهها وصراخها ساعة قراءة المصير. وعلى ضوء النهار الذي ما زال ساطعاً، استطعت أن أتبين تفاصيلها، وكانت تفاصيل امرأة لم يبق من عمرها الكثير.

الطرق على باب المرضعة كان ملحاً، والإثيوبية تظهر من جديد بعد أن فتحت الباب:

- شاكر تعيس والقبطي ميخا يا مرضعة.

- ماذا يريدان؟.

- ميخا يريدك أن تقرأي كفه بعد أن أغلقوا مقهى روماني اليوم قبل أن تكتمل العشرة أيام التي حددوها..

انزعجت المرضعة بشدة، رأيته تفقد الود فجأة، وتتحول إلى

حمر:

- لا أقرأ كفوف النصارى. أنت تعرفين يا زهورات.. لا أقرأها أبداً.

ثم هرولت بثقلها نحو الباب.

أول شيء فعلته حين عدت إلى بيتي، أن بحثت عن جهاز تسجيلي القديم، الذي لم أستخدمه منذ فترة طويلة. نفضت غباره المتراكم، ووضعت عليه واحداً من أشرطة كاتيا البطء، وراعني ما سمعت. كانت الموسيقى أشبه برمي الحصى على باب من حديد، والصوت الذي

يرافقها، خشناً، وجارحاً، ولا يشبه ذلك الوجه الذي يسكن في بيتي ضمن مجموعة الكاتيات. أغلقت الجهاز وأسرعت إلى صوري، التقطت صورة البطة، وحشرتها في إحدى الخزائن، تأملت صورة اليهودية قليلاً قبل أن أحشرها برفقة صاحبها أيضاً، وحين انفردت بكاتيا الملاك، حلت أنها تبتسم لي، لا لأولئك الصعاليك الذين كانوا يحيطون بها في حفل يبدو أنها كانت نجمة.

فجأة تذكرت تلك القصيدة التي كان يكتبها النبي حين مات، ولعنت في سري ذلك المبدع المزيف الذي مزّقها بحجة كراهية الشعر. لو كانت بحوزتي الآن، ربما استطعت استخدامها طعماً حين تأتي الممرضة، لكن لا بأس.. عندي طعوم كثيرة، ابتداءً من دواء الملاريا المغشوش، وانتهاءً بجاذبيتي التي كنت مقتنعاً بها تماماً. فقط فلتأت السمكة.. تعالي، أخذت أنادي على صورتها، ورأيت الفم المليح يفتح.. أنا قادمة.. أنا قادمة.

أخيراً تحقق الخبر، وجاءت النجمة كاتيا إذن.

كانت قد مضت عشرة أيام كاملة منذ أن التقيت بالحكومي ميروك، ومخزنه، وقمصان نومه الشبقة، وحشوت جيوبي من ماله الذي قدمه من أجل أن تبدأ الفرنسية حياتها في حي غائب. خابرتة مرة وكان مشغولاً بأزمة مياه الشرب وانقطاع الكهرباء حتى عن الميناء والمستشفى الكبير، ومرة أخرى ليخبرني بأنها طلبت من قبل حكيم إفريقي آخر في بلده، واستغربت من حيث أولئك الحكماء الذين منحوها لقباً لا يساوي درهماً في سوق الألقاب، وبالمقابل يعذبونها بالريالة التي حتماً تسيل غزيرة حين يطلبونها وتذهب. في تلك الأثناء تلقيت رداً مقتضباً وجافاً من الرحالة المقعد حاكم عذابو بعد أن أرسلت إليه استقالتي من حزبه.. كان يخبرني بأنه قبل الاستقالة، وأغلق ملفي في الجهد إلى الأبد، تلقيت دفعات جديدة من صور الممرضة الملاك، من أيمن الحضاري، الذي عرف بأنها هي القادمة ومن ثم ركز مطاراداته في فضاء الإنترنت، عليها وحدها. كانت مختلفة الزوايا والأحجام، ولاحظت أنها ترتدي في كل الصور ثوباً أزرق، موديلات مختلفة ولون أزرق، صدر مفتوح ومعلق، ولون أزرق. بكيني على شاطئ البحر، ولون أزرق. حتى حين ظهرت مرة بينطلون واسع من القطيفة في حفل خيري، كان لونه أزرق. وحين أغلقت عينيها أمام كاميرا ساطعة لمصور فضولي، كان طلاء رموشها أزرق. كان اكتشافاً

مذهلاً في الحقيقة، جعلني أعيد ترتيب حساباتي كلها، أعود إلى الإغريقي كوستا في السوق الكبير، أفوضه بمشقة، واستبدل قمصاني وبناطيلي التي اشتريتها منه، بأخرى كلها زرقاء، وألثفت إلى بيتي، أنقب عن الأزرق بداخله لأجعله في الواجهة، وكان شيئاً ملفتاً للنظر حقاً حين رأي الناس، مشمرأً عن ساعدي، أدهن بيتي القدم بطلاء أزرق لم يكن مألوفاً في الحي أبداً، سألوني، فأجبت بأنها رؤيا جاءتني في المنام. تلك الأثناء أيضاً، عاد منعم شمعة من الصين وزرته في محله، لألاحظ بأنه لم يفجع بوفاة النبوي التي حدثت في غيابه، ولو كذباً، أو يسأل عن خبر الفرنسية الذي بات السؤال المحوري في الحي منذ أتيت به من المحافظة. فقط كان يتحدث عن مبردات للماء تعمل بلا كهرباء، ولا غاز ولا أي طاقة معروفة، طرحت هناك، ونيته في جلبها إلى البلاد، ومادة الصمغ التي نصدرها، ولا نعرف لها قيمة، لكن الصينيين يصنعون منها العجائب، وبابتسامة متسعة، يتحدث عن ترانيم المضيفة التي التقاها هذه المرة أيضاً في الرحلة رقم صفر صفر تسعة دبي- بكين، وأمكنه أن يجر من فمها سنتمرات إضافية من الابتسامة، حين أخبرها باسم محله الذي سماه بها، وأن يحصل على عنوانها في الشام حتى إذا ما فكر في الزواج، طرق بابها.. سألني بمحج: هل يخبثون النساء في الشام في رأيك يا جرجار؟ قلت.. ربما.. قال: ليتهم يفعلون.. ليتهم. ولأن موسى خاطر الأممي، جاء هذه المرة أيضاً، واستلم علبة مغلقة من شمعة ومضى من دون سلام، اضطرتت إلى سؤاله:

- ما الذي تحضره لموسى في كل مرة؟
- أشياء تافهة: واقيات ذكورية.. حبوب منع حمل.. طفايات للسحائر.. روايات أرسين لوبين من مكتبات دبي.. لا تهتم.

رد وسيجارة جديدة تسعى لاحتلال مكان سيجارة محترقة.
لكن أهم ما حدث في تلك الأيام، ما تم توثيقه من علاقة حب
جارفة نشأت بين شاكر تعيس، والجميلة جداً سلافة، وفسر لي ذلك،
سؤالها عن عمره في ذلك اليوم الذي طرقت فيه بابي، وسرحانه
المتواصل حتى ونحن في المقابر ندفن النبوي. ولا أدري ماذا شد تلك
الظبية إلى واحد مثل شاكر تعيس، فرت زوجاته السابقات وهن
عرايس في شهر العسل، إضافة إلى تواضع رزقه، وميله إلى الصمت حتى
وهوسكران بخمور آل مسيكة، لم أجد تفسيراً حقيقياً، ولا أخبرني
تعيس الذي كنت ألتقيه يومياً، ولا سلافة التي شاهدتها مرتين وفرت
من أمامي، لكن القبطي ميخا جاءني ليقول:

- اكتشفا فجأة أنهما خلقا لبعضهما البعض، سيتزوجان قريباً..
وستكون كاتيا الفرنسية هي ضيفة الشرف في حفل الزفاف..
لا تنس موضوع هجرتي يا جرجار.. ضعه من أولوياتك..
أرجوك.

- وهل جهز شاكر نفسه للزواج؟
- جاهز منذ مدة.. حتى الذهب أحضره.. وبطاقات الدعوة في
المطبعة.

سألته بغتة:

- أين ذهبت جوليا روماني بعد إغلاق مقهاها؟

- في المستشفى.. يعالجونها من نزيف دماغي.

قال القبطي ودمعة كبيرة انزلت من عينيه:

- هي التي باعت يا ميخا ولم يجبرها أحد.

- لم يجبرها أحد؟

تهيج خداه حتى صاراً أحمرين..

- من قال لك لم يجبرها أحد؟.. خيرت بين البيع والمصادرة، واختارت الضرر الأخف، ماذا كانت لتفعل؟
ماذا كانت لتفعل؟ وماذا كان أي أحد آخر ليفعل لو كان يملك متجراً في موقع من المواقع التي يجبها الاستثمار.

المخابرة كانت من مبروك، تلك التي رن بها هاتفي، بموسيقى فرنسية عثرت عليها عند أحد باعة الهواتف المحمولة، وأدخلتها الهاتف على الفور، أغنية لم أفهم معناها بالتأكيد، لكنها بدت لي حاملة، ولا تشبه صراخ كاتيا البطلة، الذي نفرت منه ذلك اليوم. بهذه الموسيقى أكسب نقطة إيجابية، وباللون الأزرق نقاطاً أكثر، وربما حين اقترب أكثر، تذوب كل العوائق. بالأمس فقط أخبرني أيمن الحضاري، أن كاتيا مطلقة وبلا زوج أو صديق حتى الآن، وعضضت على ذلك الخبر حتى أدميته.. والآن يرن مسؤول كبير في هاتفي:

- تعال إلى مكتبي حالاً يا جرجار.. لقد وصلت صاحبك.

- وصلت حقاً؟

- نعم.

وأغلق الهاتف من دون إضافة.

دخلت في أنفاقي الزرقاء على مهل، بنطلون أزرق غامق، قميص قطني أزرق فاتح. انتعلت حذاء باتا اللامع، ومسحت شعري القليل بدهان فازلين، ولم أنس أن أعطر جسدي بشيء من الكولونيا. وخرجت مستمتعاً بعدم صرير الباب وهو يفتح ويغلق، ولم أخبر أحداً بالأمر، بالرغم من أن عشرات الناس التقوي، استغربوا من أنفاقي الزرقاء، وسألوني ماذا حدث؟. كنت على يقين بأنهم سيعرفون قبل أن تفارق قدماي الحي. كان العثور على سيارة للأجرة في حي غائب، أشبه بالعثور عليها في حي البساتين الراقي، واحد لشدة فقره، والآخر

لعدم احتياجه. وقفت لساعة أنتظر، حتى هبط فرفور المغني من إحداها، برفقة عوده القديم، فركبتها بسرعة من دون أن أحیی فرفور، أو أسمع لعيني أن ترى دهشته التي حتماً اندهشها وهو يراني بذلك الزي الغريب، وأركب عربة للأجرة.

أمام مبني المحافظة عثرت على سريرة بائعة الشاي الموعودة بالزواج مني، ولا تريد أن تفلت ذلك الوعد، لكنها لم تعرفني، حتى حين تعمدت أن أشترى منها كوباً وأدلقه على الأرض قبل أن أدخل من الباب. كان الجو غائماً، ورائحة لمطر بعيد، وخلته الجو المناسب لبداية حياتي الجديدة.

كان مبروك جالساً على مكتبه العريض، يرتدي قميصاً أبيض، ورباط عنق أحمر، حين تجاوزت ملكة السكرتيرة ودخلت، أمامه مباشرة تجلس فتاة سوداء البشرة وضئيلة الجسم، على جسدها قميص بلون الأرض، وعلى رأسها غطاء قهيجت فيه الألوان كلها فلا تعرف له لوناً، وكان عنقها محاطاً بقلادة من القصدير وفي عينيها رمد. لم ينهض مبروك من جلسته ليصافحني، لكنه قال:

- هذا علي جرجار من حي غائب الشعبي.. وهذه سومية أحمدو من ساحل العاج.

ابتسمت للفتاة بلا معنى حقيقي، وابتسمت هي لتظهر أسنانها مفرقة وصفراء.

عاد الحكومي يقول:

- والآن اصطحبها معك.. أنا مشغول جداً.. لدي اجتماع بعد عدة دقائق.. أظني أعطيتك نقوداً من قبل، أليس كذلك؟
- اصطحبها إلى أين؟

قلت وقد أحسست أنني بلا ريق يبل الحروف لتخرج.

بدا مبروك مستغرباً وهو يقول:

- أليست صاحبكم التي تنتظرونها؟.. ماذا بك يا جرجار؟
كنت على حافة الغيبوبة في تلك اللحظة، بل بدأت أدخلها بالفعل، لكنني تماسكت حتى لا أسقط قبل أن أعرف ما حدث، لم يكن كل ذلك الدوار في دمي، ودم سكان غائب طيلة تلك الأيام، التي مضت من أجل فتاة مصابة بالرمد، والأنيما، ومن بلد لا يقل تراجعاً عن حي غائب، بل يفوقه. لا بد من تفسير، وسأنا له الآن قبل أن أعود إلى ثوبي وعمامي التقليديين، ونساء الفقر، أغارهن من جديد، قبل أن أموت بالسكنة القلبية، ويدفوني بجوار النبوي تحت أشجار المسكيت المألحة.

- سيد مبروك.. نحن ننتظر كاتيا الفرنسية، وليست هذه.
ورغمًا عني وجدت يدي تشير إلى فتاة الأنيميا وأنا أقول "هذه"، وكانت تبسم مضيئة إلى حوارنا بهاراً مرّاً.

- كاتيا الفرنسية.. كاتيا كادويلي..

خبط مبروك على رأسه وهو يضحك..

- آسف.. آسف جداً يا جرجار.. لقد اختلط علي الأمر من كثرة الأعباء.. هذه ليست صاحبكم بالتأكيد، لكنها جاءت لزيارة شيخ العواني، لتتدرب عنده لمدة ثلاثة شهور بناء على منحة منه. إنها طالبة في كلية الدجل والشعوذة في بلدها وعلى وشك التخرج.

ارتحت قليلاً لكن ما زالت ثمة بقية من قلق.

- وأين صاحبتنا إذن؟.

بحث مبروك بين أوراقه، ليخرج منها ورقة من أوراق الفاكس، تأملها قليلاً مستخدماً نظارة للقراءة، ثم قال:

- يبدو أنها مغرمة بالحكماء الأفارقة أو هم مغرمون بها، لأنها تطوف من بلد إلى آخر مقيمة في ضيافتهم.. سأخبرك حين يجد جديد، ولن أخلط الأمور مرة أخرى.. هذا وعد.
- ثم مد يده إلى هاتفه، طلب رقماً ما، وسمعته يقول..
- نعم يا شيخ عوالي.. إنها في مكنتي وتنتظر مندوبكم.. حاضر.. حاضر.. مع السلامة.

لا أريد أن أصف دوارى الذي خرجت به من عند مبروك، الذي جلست به أمام سريرة وطلبت به شايًا كنت أحتاجه، وهي لا تعرفني بالرغم من أنني قلت لها أنا علي جرجار زوجك الذي تنتظرينه. ولم تصدق. كنت محبطاً ومغتاظاً، وبت أضمر حقداً شرساً لإفريقيا من رأسها حتى قدميها، تلك التي لا تريد أن تفلت العطر حتى نشمه، لا تريد أن تعيننا على التغيير الذي بدأناه بالفعل، وخفت في قمة توترى أن يتجاوز أولئك الحكماء معنى قبولها للقب الملاك وضيافتهم السخيفة إلى أبعد من ذلك، حيث يتقاتلون عليها بثروات شعوبهم، ومن ثم تنسى حي غائب وتلك الدراسة التي تشارك فيها. لا أريد أن أسأل نفسي عن هويتي، والمعنى الذي قد أعنيه للفرنسية حتى لوجاءت وسكنت في قلب بيوتي.. فقد وطنت نفسي على حبها وأني رجلها الذي ستأتي لتعاقبه. لست مجنوناً لكنني قد أجن في أي لحظة، ولست متوهماً، لكن الوهم قريب، وقريب جداً.

ركبت باصاً متجهاً إلى الحي، متجاهلاً سيارات الأجرة التي كانت تشدها أناقي الزرقاء، فتبطئ السير قربي، تركت الرجرجة يزدهمون حولي، يوسخون ثيابي، يصبقون على حذائي الباتا، ولم أستحب لنداء امرأة شابة رجعتني أن أبعد عنها واحداً أحرقت كان ملتصقاً بجسدها، وغير عابئ باستياء الناس.

أول من واجهني حين نزلت من الباص، كان موسى خاطر.
وجدته في موقف الباصات يفتش مراهقاً، ويخرج من جيبه قطعة من
نبات البانجو المخدر.. قال حين رأي، وهو يتسم:

- هارد لك... يا جرجار.

وما هي إلا دقائق معدودة حتى كانت الرسائل تنهمر على هاتفي
حتى من المشرد كنكل ساكن الشوارع، وهي مذيلة بكلمة واحدة:
هارد لك.

وعلى طول الطريق إلى بيتي، كنت أشاهد نساء مزرشات
يسرعن الخطى إلى بيوتهن ليعدن نساء بلا زركشة، وأطفالاً مغسولين
وبلا ريالة، يحاولون جاهدين أن يحتلبوا ريالاهم، أشاهد ميخا ميخائيل
دقندس يرتدي على عنقه صليلاً من ذهب، لم يظهر به من قبل في الحي،
وعركي صاحب البقالة، وزملاءه من أصحاب المحلات متعددة
التخصص، يصعدون سلام من خشب، لينزلوا كاتيا التي كانت اسماً
جديداً لمخلاقهم، كتبوه باللغة العربية والإنجليزية.. ويمحونه الآن، لا
أدري بصفة مؤقتة أم إلى الأبد. وعلى حين بغتة اقترب مني مبدع،
الولد اللئيم للنبي الذي سماه باسم لا يشبه لؤمه. كان ثوبه نظيفاً بلا
نقاط استحلام في الوسط، وفي يده ورقة سلمها لي قائلاً:

- هاك قصيدة والدي التي كتبها في الفرنسية.. لم أمزقها حقيقة،

لكنني كنت أود أن أصطاد بها طيراً أوروبياً.. هاك؟

الوغد.. هتفت في نفسي، بل الوغدان، الولد وأبوه.. وفتحت
الورقة بأصابع مرتجفة، لأقرأ بخط النبي الكلاسيكي القديم، قصيدة لم
ترعجني فقط، لكنها أرعبتني:

سمعت عن الملاك فهاج شعري

وعربدت الصباية في عيوني

وأصبح للمداد بريق حرف
يضيء لك الطريق فكلمني
أيا كاتيا الجميلة أين أنت
وأين الشوق للصب الحزين
وأين صفاء نهر السين يسقي

دماءك بالمحبة والحنين

لم أستطع إكمال القصيدة، ولا عدت لقراءتها بعد ذلك أبداً..
كانت نية النبوي مبيتة لغزو قلب الفرنسية إذن، وكان موته مكسباً،
وفي وسط الرعشة التي شعرت بها، سمعت عركي صاحب البقالة
يكلمني:

- في المرة القادمة لن نعلق اللافتات التي تحمل اسمها، إلا إذا
رأيناها تدخل الحي بالفعل. لقد سقط غباشي الجزار من أعلى
السلم وهو يعلق لافتة وكسرت رجله، وأصيب أحد الصبيان
بطعنة مسمار في قدمه ولم نعثر له على مضاد للتثانوس. سلام
يا علي... يا جرجار.

- 8 -

شهران كئيبان مرا، ولم يظهر أي خيط جديد يصلح لتتبعه في موضوع أرَّقني وأرَّق سكان الحي كلهم. وأخبرني أيمن داؤود الحضاري في أحد الأيام، إنه لم يعد يملك أية إضافة مبدعة بخصوص ذلك الموضوع، وقد بدأت الباحثات الإلكترونيات في الإنترنت، تتذمر بمجرد أن ينقر على اسم كاتيا في إحداها. والحقيقة أن الصبي لم يقصر، زودني حتى بعدد مقادير الملح وصلصة الطماطم والبهارات التي تضيفها لكل طبخة، وموعد تجديد جواز سفرها، ورخصة قيادتها والتأمين على الحياة. اخترق ملفها في عيادات الأسنان والباطنية وأمراض النساء والتوليد، بمعاونة هاكر محترف، واكتشف أنها أزلت وربما ليفياً من الرحم منذ عدة سنوات، عولجت من الإرهاق مرتين، ونصحها طبيب الأسنان ببيع ابتسامتها للصحف والمجلات، باعتبارها أرقى ابتسامة في أوروبا. كنت أتهيج وأبرد، أعرق وأجف، أرن للحكومي مبروك في هاتفه المحمول، وما عاد يرد على اتصالي، أحاول هاتفه الأرضي في المكتب، فتصدي تلك الرسالة الآلية المملة:

"مرحباً.. أنا مبروك خضر.. عند سماعتك لرنين الجرس، ضع اسمك ورقم هاتفك، وسنرد عليك لاحقاً".

أضع اسمي ورقم هاتفني، ولا يأتي ذلك اللاحق أبداً. وقد حاولت في مرات عديدة أن أذهب إلى مبنى المحافظة، اقتحم مكتبه كما كنت أفعل في السابق، لكن أواجه برجال الأمن من شركة "لا مخاطر"، التي

أنشأها أحد المسؤولين الكبار مؤخراً، واشترت الحكومة خدماتها بالكامل لتوزعها على مكاتب من تراهم يستحقونها. وفي المرة الوحيدة التي اقتنصته فيها بعد أن هبط من سيارته أمامي، عانقني بود، اعتذر عن مشاغله التي أنسته حتى اسم عمته سكينه التي ربه، فناداها باسم عمي زينب. ثم أضاف: إن الفرنسية كاتيا بدأت مرة أخرى تكرار حلقة الحكماء الأفارقة. دعوة من حكيم.. من حكيم آخر، وثالث.. وهكذا.. لا ندري متى تنتهي تلك المسألة. ثم فجأة تغيرت تعابير وجهه:

- لكن قل لي يا جرجار.. لماذا أنت مهتم هكذا وبائس هكذا؟.. جاءت أم لم تجيء.. هذا شأنها.. لماذا أنت مهتم؟
لم أكن أملك رداً حقيقة على استفساره. ولم يتماد مبروك في نبش لحمي، أدخل يده في جيبه، سلمني رزمة جديدة من المال من دون أن يوضح أوجه صرفها، ثم انفلت مهرولاً إلى داخل المبنى.
ذلك اليوم أيقنت تماماً بورطة القلب التي زرعت فيها، أن يهجر نساءه الفقيرات الوديعات، المتاحات في كل ركن، ويركض خلف عشق لا يود أن يصير، خيال لا يود أن يصبح حقيقة.. تعاسة لا تود أن تصبح سعادة. ماذا ترى يحدث في تلك الضيافات الإفريقية؟ وماذا تقدم لهم ممرضة اكتشفت غشاً في دواء الملاريا، وأصبحت نجمة؟. لو كانت راقصة من راقصات الإستربتيز، لقلنا سياحة لغرائزهم في جسد لا يشبه أجساد إفريقية، لو كانت مغنية كـ "كاتيا البطة"، لقلنا قهرهم بصوتها، وربما تمجد نضالهم ضد عنصرية اللون في عدد من أغانيها. ولو كانت طاهية للحوم الخراف والبقر، ربما أدمنوا طهوها وعينوها لديهم. أحسست بأن ذهني قد تعب، قدماي تعبتا، وجسدي كله فريسة للتعب. وقررت أن أستريح ولم أستطع. كانت صورها تملأ البيت،

لونها الأزرق على الحوائط، وأواني الطبخ، وكل شيء.. وأهم من ذلك، تغييرها لتذوقي، فما عدت أذوق امرأة سواها.

جاءتني زهورات الإثيوبية ذات يوم، قالت إن حليلة المرضعة تريدني فوراً لأمر هام، فحضت من تعبتي وتبعتها، كانت الحياة ضاحكة في الحي، دخول وخروج، وثرثرة وضحكات، وصراخ أطفال. شاهدت فجأة فتاة ساحل العاج صاحبة الأنيميا والرمد، تقبض من سيارة فاخرة برفقة رجل عريض، ومعمم، يحمل في يده حقيبة، واستنحت على الفور إنما برفقة شيخ العواني تتلقى تدريجاً في الدجل في حي يعشق الدجالين بشدة. ابتسمت لي، ولم أبتسم لها، ومضيت في طريقي. وصلنا إلى بيت المرضعة، ولاحظت أن جملة "أعطني أعطك" المكتوبة على الباب، قد تحسنت، وكتبت بيد خطاط محترف. البيت في الداخل أيضاً بدا مختلفاً عن المرة السابقة، كانت ثمة أسرة جديدة، وثلاجة كهربائية، وجهاز لقتل الحشرات معلق على السقف، يضخ لونا بنفسجياً. لم أسأل الإثيوبية، لكنها بادرت:

- هذه هدايا من منعم شمعة.. لقد بشرته المرضعة بأمر صفقة تجارية كبيرة في الصين وكسيها بالفعل.

لم تكن حليلة ودودة هذه المرة.. وقالت بصوت باتر:

- أين إيجار غرفتي للشهر الماضي يا جرجار؟

- أنت تعرفين أن كاتيا لم تحضر.

- كفك ما زالت عرقانة.. هاتما لأقرأها.. هاتما.

لم أعطها كفي لا في ذلك اليوم، ولا في أي يوم آخر. لم أكن أريد كتابي أن يفتح أمامها مرة أخرى، وأخاف أن يكون مصيري قد غدا بائساً، ومن ثم أسمع صرختها المميتة.

- إذن أعطني مفتاح غرفتي، العمدة صاحب الحلال في طريقه إلينا بعد أن تحسن الوضع في الجزيرة الخضراء، وحصدوا القطن والقمح، لديه نساء وصبيان يملأون كل الغرف، أعطني المفتاح.

أدخلت يدي في جيبي، لا لأعطيها المفتاح الذي بت أحبه أيضاً، ولا يفارق جيبي حتى حين أستلقي لأنام، وأتلمسه كلما أحسست بالعطش، ولكن لمنحها إيجار غرفتها مضاعفاً لمدة شهرين آخرين. بدت على وجهها الكئيب علامات رضى أكيد، ولان صوتها حتى تحول إلى نجوى، وهي تغني واحدة من أغنيات الأفراح التي سادت منذ ربع قرن.. وهي تنادي على الخادمة لتصنع عصيراً مثلجاً للوجيه علي جرجار.

كان ميخا ميخائيل دقندس قد بدأ يزعجني بشدة بعد أن ماتت جوليا روماني متأثرة بالنزيف الدماغي، وهجر شاكرا تيس صداقته لانغماسه في حب الجميلة جداً سلافة، وتخطيطه لطقوس العرس والمستقبل معها. لم يكن يمكث في بيته إلا دقائق معدودة حتى يفر منه، ييكى أمام مشروع برج التوبة العملاق، أو مصرف بروق، ويعود إلى الحي طارفاً بابي من دون كلل.. ضع هجرتي في أولوياتك يا علي.. ضعها أرجوك. أفهمته مئات المرات بأنني لا أملك مفتاح هجرته، ولا هجرة أي شخص آخر في الوقت الحاضر، وعليه انتظار المعجزة، كان يقول.. لا توجد معجزات في الدنيا، لكن توجد حلول عملية.. أنت تملك بعضها. وحين بلغت حداً لم أعد أستطيع فيه إفراغ مستقيمي من دون أن يكون حاضراً، ومتابعاً لعملية الإفراغ من بدايتها حتى نهايتها، ألبسته ثوباً وعمامة من ثيابي النظيفة. أخذته في يوم جمعة مبارك إلى الجامع الكبير في وسط السوق، حيث يصلي الوجهاء والأثرياء وقادة

العمل الحكومي في المدينة، وجدنا بالكاد موضعاً نجلس عليه، لنستمع إلى خطبة الإمام التي كانت بالصدفة عن سماحة الدعوة، والأجر الكبير من إدخال رجل في الإسلام. كان ميخا يستمع بلا حماس، كانت يده ترتعشان بشدة وقد احمرت إحدى عينيه فجأة، وحين انتهت الصلاة وقبل أن يتفرق الجمع، وقفت أصيح وأنا أشير إليه:

- معي الأخ ميخا ميخائيل الذي سمى نفسه مختار وجاء لينطق بالشهادة.

هتف المصلون بصوت واحد: الله أكبر.. الله أكبر.. قلل وجه الإمام بشدة وهروا إلى حيث مكاننا، أخذ ميخا من يده إلى المقدمة حتى يراه الجميع، ثم أنطقه الشهادتين ببطء، فنطقهما متلعثماً لكن من دون أخطاء. أفلته الإمام، واقترب مني ليهمس لي بضرورة أخذه إلى المستشفى لختانه حتى يكتمل إسلامه، وتدريبه على أمور الدين متى ما تيسر الأمر. وكدت أضحك وأنا أتخيل كهلاً في الستين، تجر لحمته التي عاش بها كل ذلك العمر، وأنجب بها أطفالاً كبواً، وهاجروا إلى أستراليا، وحين خرجنا ووقفنا أمام المسجد، لتتلقى تبرعات أهل الخير، وتنتهزهم، ووعدوهم بمستقبل جديد لميخا، كما هي العادة في مثل تلك الأحوال، لم يأتنا أحد. قفز الوجهاء إلى عرباتهم وانصرفوا، ليتركونا برفقة رجل من السجل الشرعي، وثق إسلام ميخا، واسمه الجديد على دفتر كبير يحمله، ولوح له بحد الردة، الذي هو القتل، إذا راودته نفسه بالعودة إلى النصرانية مرة أخرى.

كان موقفاً معقداً ذلك الذي تعقد به ميخا. لم يخرج بلا دعم بعد أن أسلم، فقط، لكن بسيف مسنون على رقبتة لو جاءت سيرة الذكريات مرة أخرى على لسانه، رافقني إلى حي غائب وهو ييكي، أنفق ما تبقى من النهار، والليل الذي قضاه في بيتي وهو ييكي، لم يعد

بإمكانه أن يذهب إلى برج التوبة أو مصرف بروك، أو قبر الأب مكارس ليحاول استعادة شيء من الذكريات، لم يعد بإمكانه أن يشم النسيم في عيد شم النسيم، أو يلتقي بمن تبقى من أقباط المدينة، في عيد الميلاد ليقول بملء حلقه ميري كريسماس، وقد فهم من الموثق الشرعي الذي وثقه أمام المسجد، أنهم سيتحققون من ختانه بعد عدة أيام، ومن صومه رمضان حين يأتي الشهر الفضيل، وقد يطالبونه بزكاة أمواله إن ثبت أن لديه أموالاً حال عليها الحول.

قلت وأنا لست واثقاً تماماً، وأحس بشيء من الذنب في ورطته، وأيضاً من الانزعاج بسبب ذلك الحبل الذي ربطت نفسي به كوني راعياً لإصلاحه، في وقت كنت فيه مبعثراً ومعكراً المزاج، أنتظر كاتيا الملاك ولا تأتي:

- يوجد حل يا أخي.. لا تبتئس.

كان قد قفز إلى ذهني في تلك اللحظة، ذلك الخبر العريض الذي سمعته من البعض، عن وعود مندوب عربي للهجرة جاء من إحدى الدول الأوروبية، ليجري معائنات للراغبين في الهجرة، ويقيم في أحد فنادق المدينة. في الحقيقة أنني سمعت بالخبر منذ عدة أيام لكنني نسيت وسط ارتباكِي، لأتذكره الآن فجأة بعد أن تورط ميخا ورطة لا رجعة فيها.

حدثته بالأمر، وأخذته إلى فندق الرأسمال الفاخر، حيث يقيم المندوب. كان الزحام على أشده في ذلك الصباح، وقد أفردت إدارة الفندق أكبر قاعاتها لاحتواء تلك الفوضى، كان يوجد شباب أقوياء وكهول يقتربون من النهاية، أمهات يرضعن أطفالهن على مرأى من الناس، وجدات يتوكلن على العصي، عثرنا على المشرد كنكل ساكن الشوارع، يعبث بهاتفه المحمول وهو ينتظر، ومبدع النبوي، يرتدي

قميصاً تي شيرت وبنطلوناً من الجينز، ينتظر أيضاً، وحام حولنا عدة أشخاص يشبهون موسى خاطر في مشيتهم ونشاط أعينهم، وبعد ساعات من العرق واللهات، وتحتر الأنفاس، وسقوط عدد من كبار السن في نوبات إعياء، جاء دورنا لنقف أمام المندوب. كان شاباً في ثلاثينيات العمر تقريباً، شعره مصبوغ بلون بني، وينسدل حتى الكتفين، يرتدي ثياباً سوداء من قماش فاخر، ولخت على أصابعه التي تنقر على كومبيوتر محمول، طلاء أظافر أحمر اللون، وحين تحدث كان صوته، صوت أنثى:

- من منكما طالب المحجرة إلى لو كسمبورج أيها السيدان؟
- أشرت إلى ميخا ميخائيل، وأنا أحس بالغثيان وباحتمال ورطة موجعة أخرى تنتظره، لكن لم تكن ثمة خيارات.. قلت:
- أخي ميخا ميخائيل.. عازف أورك مبدئى كان في كورال كنيسة العذراء قبل أن تخدم، لكن سيكمل تعليمه.. ويصبح عازفاً كبيراً، أيضاً يجيد تربية البط.. و..
- لم أعثر على جمل أو مؤهلات أخرى أضيفها إلى سيرته الذاتية.. فسكت.

- ألقى المندوب نظرة عجلى على ميخا، لا أظنها حتى لامسته ثم قال:
- لن نهاجر بكهل مثل هذا ليموت من الصقيع، أو من النشوة في أحضان امرأة.. آسف يا مربى البط.. نحن لسنا في الغرب الأمريكي.. نحن في أوروبا.. انتهت المقابلة..
- ثم رفع صوته الأنثوي صائحاً:
- الذي بعده.

رأيت ميخا يترنح كسكران، فأسندت ظهره، وبدافع الفضول سألت المندوب الأنثوي:

- ما هو نشاطكم بالتحديد؟.
- اكس اكس لإنتاج أفلام الإيروتيك.. نحن أكبر منتجين لها في أوروبا، ألا تشاهد تلك المتعة يا رجل؟

رد، ويده الناعمة تتحرش برقبتي..

كان ميخا غائباً عن الوعي تقريباً. اضطررت للاستعانة بعدة رجال من العاملين بالفندق، حتى أخرجناه من الغرفة، سقيناه الماء والسكر، واستيقظ في النهاية ليمضي معي منكمس الرأس وبلا أي صوت حتى خيل إلي أنه أصيب بالخرس. كانت ثمة ضجة في حي غائب حين وصلنا إليه، وكانت تنبعث من بيت النبوي حيث يقيم ولده اللذان تركهما. واكتشفنا أنها طبول للفرح يدقها مبدع النبوي الذي اختير للهجرة إلى أوروبا بواسطة ذلك المندوب الأنثوي، وكنت واثقاً تماماً أنه يدري بحجم المزيلة التي تنتظره هناك، ويدق الطبول من أجلها. لم أرد أن آخذ ميخا إلى بيتي من جديد، حتى لا يعوقني عن الانفراد بصوري ومشاعري. قدته إلى بيته الذي لم يكن بعيداً عن بيتي، وهناك وجدنا بابه مكسور القفل، وقد اختفت كل حياته النصرانية التي عاشها لأكثر من ستين عاماً. لا صليب.. لا وشاحات.. لا تراتيل، ولا كتاب مقدس.

- لم يبق شيء من الماضي إذن.

لا أدري هل هو الذي قالها، أم أنا، أم لا أحد لكنني تخيلتها. أرقدته على سريريه الخشبي المترنج، كأنني أم ترقد طفلها، وجلست زهاء الساعتين أستمع إلى أنينه، وأبتئس أكثر.. بالأمس وقبل أن آخذه ليتوثق مسلماً، كلمت عركي صاحب البقالة، في شأنه.. قلت سنعود من صلاة الجمعة لنجذك قد أعددت رسالة بخصوص ميخا.. هذا مهم يا عركي، لكن الرجل لم يبد متعاوناً هذه المرة، وخمنت إن عدم مجيء

الفرنسية التي ملأ محله بأغراض أحس أنها ستستهلكها أثناء إقامتها في الحي، قد أثر على طبيته، وشهامته في مثل تلك الظروف. قال من طرف لسانه:

- دفتري ممتلئ بالديون يا جرجار، وأمامي خمسمئة بائس ينتظرون دورهم لدى جمعيات الخير.. دعه ينتظر إذا أراد.

لا أذكر بالتحديد متى بدأت علاقتي تتوطد بصور كاتيا الملاك التي قطعاً دخلت في الحلقة الرابعة أو الخامسة من مسلسل حكماء إفريقيا، لتتحول تلك العلاقة إلى شراكة حقيقية بين رجل وامرأة، ذكر وأنثى، لكن ذلك حدث غالباً في أعقاب تشكيل وزاري مباغت حدث في العاصمة، دخل على إثره صديقي مبروك خضر إلى الوزارة، وزيراً لشؤون الأقليات، وأول وزير لتلك الوزارة المستحدثة. لم يكن ذلك أمراً مستبعداً بالنسبة لمبروك، ولا لأي شخص آخر، في بلد أصبح فيها زكريا حنقة ناظر محطة السكة الحديد وزيراً للمواصلات، وكردى الذي كان مشرداً يشم البنزين في محطات تموين السيارات، وينام في الأزقة، رائداً لجهاز الأمن العام، والممثل الفكاهي فتحي فتاح، سفيراً للبلاد في إحدى دول أميركا اللاتينية. وكان الرحالة حاكم عذابو بالرغم من شلل أطرافه، وإنشائه لحزب معارض مغمور، دائماً ما يتوتر عند انطلاق أي إشاعة لتغيير وزاري محتمل، كانت في نفسه قناعة كبيرة بأنه سيستدعى ذات يوم من قبل رئيس البلاد، ليكلف بتشكيل وزارة جديدة. أذكر أنني ذهبت لأهنيء مبروك على اختياره وزيراً بعد أن سافر وأدى القسم أمام الرئيس، وعاد لتسليم منصبه القديم إلى شخص آخر. وجدت المحافظة ضاجة بالأناشيد وقوالب الحلوى، وابتسامات النفاق من موظفين كانوا رؤساءه أو كان هو رئيسهم، ورجال الأمن من شركة "لا مخاطر" متوافرين بكثافة، يفتشون حتى

الذباب لو حاول الدخول. وقد أضافوا إلى الشعر المكتوب على قمصانهم، جملة "نحميك حتى من نفسك".

قلت لهم: أنا علي جرجار صاحب صيحة التخيل الشهيرة التي يعرفها أي شخص. فلم يعن لهم ذلك شيئاً. قلت: أنا صديق الوزير مبروك ويتوقع أن أزوره اليوم، فابتسم أحدهم قائلاً:

- صديقه قبل أم بعد؟

- وما الفرق؟

- الفرق كبير جداً.. قبل تعني ماضياً سيندفن عميقاً، وبعد تعني

مصلحة ستتم بين الطرفين لاحقاً. هل فهمت؟

وكان صادقاً في حديثه، لأنني رابطة أمام مبنى المحافظة حتى خف الضحيج كله، وخرج مبروك برفقة حارسين من ذات شركة لا مخاطر، يضعانه في وسطهما ويتلفتان حولهما في حذر، صحت: مبروك.. مبروك.. سعادة الوزير.. أنا علي جرجار، لكن الوزير لم يلتفت، كان وجهه منتفخاً بعض الشيء، في عينيه طرب ماء، وهاتفه المحمول يرن بلا انقطاع في جيبه من دون أن يمد يده ليسكته. وحين التقيت بالسكرتيرة الإثيوبية ملكة بعد عدة أيام في السوق الكبير، رأيتها صفراء، ونخيفة وفي وجهها حزني لم تحاول إخفاءه عني. قالت: أنا حامل وعاطلة عن العمل، وأمي مريضة بالسرطان، وحتى محل تصفيف الشعر الذي كنت أعمل فيه، يرفض عودتي إليه.. ثم سقطت على كتفي وهي تبكي.

كنت أفكر باستمرار في موضوع كاتيا الفرنسية، وكنت موقناً بأن ملف زيارتها المرتقبة، قد قدم للمسؤول الجديد ليقراه ويتابعه، وتمنيت في قرارة نفسي أن يكون أنشط من مبروك، ليأتي بالأخبار من منابعها في إفريقيا، لا لينتظرها حتى تأتية. كانت المعضلة في كيفية الوصول إلى المسؤول الجديد، الذي أخبرني ملكة بعد أن خفت نوبة

بكاؤها، إنه من حي مايو الشعبي، اسمه عبادي عبادي، وكان في السابق خارج البلاد ضمن حركة للتمرد وقَّعت صلحاً مع الحكومة مؤخراً، واستوعب جميع أفرادها في الدولة.

- ومن سكرتيرته التي حلت محلّك؟

كان سؤالاً حساساً، لكنها ردت عليه بجسارة:

- ليس لديه سكرتيرة في الواقع.. ولكن سكرتير.. رجل.

كان أمراً غير مألوف أن تدخل مكتباً حكومياً، أو خاصاً يضع وجهاً خشناً في الواجهة، لكنني استبشرت خيراً. كنت مقتنعا بأن المسؤول الذي يستغنى عن ذلك المخزن الشبقي، وتمثيل السكرتيرات وغنجهن أثناء تقديمهن لأوراق التوقيع، هو جدير بالاحترام. حزمت أمري وذهبت إلى مبنى المحافظة، تملصت من رجال شركة "لا مخاطر" بصعوبة بعد أن فتشوا حتى عيني وأماكني السرية، ورأسي القليل الشعر، وقفت أمام السكرتير، وكان لدهشتي رجلاً مسناً أبيض الرأس واللحية، نائماً على مكتبه، وثمة لعاب غزير يخرج من بين شفتيه. تجاوزته بسرعة، ونقرت باب المسؤول لأسمع صوتاً خشناً يقول: أدخل.

كان المسؤول الجديد عبادي، رجلاً بلا ملامح تقريباً، وقد تشوه نصف وجهه بحريق ما.. كان يرتدي الثوب والعمامة، ويدخن سيجارة برائحة خانقة.

مددت يدي لأحتضن يداً يابسة بلا مشاعر، وقلت:

- أنا علي جرجار من حي غائب.

- نعم.. نعم.. لا بد أنك دخلت موقعي على الإنترنت.. عبادي

دوت كوم، وقرأت قصة الزرافة التي درّبتها على صنع الشاي والقهوة أيام كنت محارباً في الجنوب. كل الذين قرأوا تلك القصة جاءوا ليسألوني عن التفاصيل.

كانت فرصة للكذب، ولعل الرجل يماثلني في التخيل، أو يكتب قصصاً درامية للأطفال، سأكذب عليه وبعد ذلك أرى ماذا سيحدث حين الحضاري في موقعه.

- نعم سيدي.. قصة رائعة، لكن في الوقت الحالي لدي موضوع آخر.

- قل وسنسمعك.. إلا إذا كان خاصاً بقطوعات الكهرباء، وشح الماء ورداءة رغيف الخبز.. هذه معضلات بلا حل.

- أنا أسأل بخصوص كاتيا الفرنسية التي من المفترض أن تزور حي غائب وتأخرت زيارتها كثيراً.. ماذا حدث ولماذا تأخرت؟

- نعم.. نعم.. عندي علم بذلك الموضوع.. وسأرى الآن. أمسك بالهاتف، أدار رقماً طويلاً بدا لي لن ينتهي أبداً، ثم تحدث بلغة لم أفهمها لكني سمعت اسم غائب يتردد.. أغلق الخط، أدار رقماً آخر أكثر طولاً، ومتحدثاً بذات اللغة وبتريد أكثر لاسم غائب، وحين انتهى خاطبني:

إنها في غينيا بيساو، في ضيافة الزعيم، وفي هذه اللحظة بالذات يقوم بمنحها لقب الجوهرة البيضاء الذي أقره البرلمان أمس فقط من أجلها.. ولديها موعد في دولة الكاميرون غداً، لتبارك فريق كرة القدم قبل سفره لمباريات كأس العالم. إنها محظوظة.. صحيح؟

لم أكن أشاركه الرأي بالتأكيد، وأنا أرى أنياب إفريقيا وأضراسها، تعض على عطري الفرنسي ولا تفلته، من موائد الحكماء إلى مباريات كرة القدم، وغداً قد يستخدمونها مفاوضاً محتملاً في الحروب الأهلية.

قطع المسؤول خيوط أفكاري:

- لديها دعوات من نيجيريا وتشاد وبتسوانا، وجزر تمبستو،
وساحل القروود، وبلاد اللحم، لمفاوضة المتمردين الذين أشعلوا
حروباً أهلية أضرت باقتصاد تلك الدول.
- كل ذلك تفعله ممرضة؟
هتفت..

- ليست ممرضة يا سيد.. إنها نجمة بلقب الملاك.
قال المسؤول وثمة بريق لمع في عينيه.
- حسناً.. ومتى تتوقع أن تأتي؟
سألت، ولم يتبق في حلقي ريق أبلعه:
- لست منجماً يا أخي.. أنا محارب قديم ليس إلا.
كان كلاماً مرأً وددت لو أنني لم أسمع، ولا ورد أي حيط يخصنا
في حديث المسؤول، بالرغم من ترديده لاسم الحي في مكالمته. همت
أن أغلق ذلك الملف بشتم إفريقيا أمامه، والسخرية من زرافته التي تصنع
الشاي والقهوة، والبصق على وجهه الذي شوهته الحرب، لكنني لم
أفعل.. أو لم أملك الجرأة لأفعل.. لا أريد أن أخسر كاتيا، ومن العدالة
أن أصبر، حتى تنتهي من أولئك المحتالين، وتأتي بلا مشاغل لأعانقها.
قلت:

- هل أترك رقم هاتفي حتى لو..
لكنه قاطعني بحدة:
- لا تترك رقم هاتفك، ولا تتصل بنا، ولا تأت إلى مكنتي،
إلا إذا كنت تود أن تسمع تفاصيل أكثر عن قصة الزرافة.
وأظننا نعرف أين يقع حي غائب إذا سأل عنه أحد.
كانت في بيتي حوالي ثلاثين صورة مختلفة لكاتيا الملاك، كلّها
بحجم يجسد التفاصيل بجدارة، ومطبوعة بطريقة اجتهدت فيها ماكينات

الطباخة في مقهى عبد الله جني.. وضعتها مفرودة أمامي بعد أن غسلت الطاولة بالصابون والكلونيا، اخترت تلك التي التقطت في أحراش إفريقيا، أو برفقة زعيم من تلك القارة، وألغيتها بوضعها في صندوق قديم. بدأت أعيد ترتيب ما تبقى من الصور، وعثرت على واحدة بدت مشرقة جداً.. وقد التقطت في إحدى قاعات فندق كبير في العاصمة الفرنسية، وسط شموع وقوالب من الحلوى.. هذه صورة عرسي.. دققت على الطاولة.. هذه هي.. فقط تحتاج إلى طرحة بيضاء، ومراسم خاصة سأقوم بإعدادها. ثم أفرح.

أخذت تلك الصورة، وصورتين أخريين، واحدة على مقعد أخضر في الهواء الطلق، ويبدو فيها شعرها متناثراً بإغراء، والأخرى بلباس البحر على شاطئ ضاح لا بد أنه شاطئ الريفيرا. أخذتها إلى عدلي طاووس الذي كان إغريقيا ولد ونشأ في المدينة، وحاول دراسة الإخراج السينمائي في روسيا، لكنه لم ينجح، وعاد إلى المدينة ليفتح استوديو للتصوير الفوتوغرافي، أدخل إليه حديثاً علم المؤثرات بعد أن أصبح علماً مطلوباً في البلاد، خاصة في مناسبات الأعراس، إذ يمكن أن تتحول القطعة العرجاء بفضل ذلك العلم إلى فاتنة تشد اللعاب من منابعه، والمرأة المترهلة، إلى عارضة أزياء ذات خصر أكثر دقة من خصر ناعومي كامبل. قلت للإغريقي: أريدها صوراً لعروس في ليلة الدخلة، في شهر العسل، وفي كل مرحلة من مراحل الحياة الزوجية، أريدها ضاحكة وغاضبة ومستاءة، وفي لحظة الرعدة حين تنطلق منها الرعدة. وكان من حسن حظي إن ابن أختي عذيلة قد ترقى إلى مراقب لأعمال النظافة، في الخليج حيث يعمل، فبعث لي بنقود إضافية كانت تكفي لإتمام كل شيء. دفعت للإغريقي أتعابه مقدماً وأنا أستعجله. لم يطرح أي سؤال، ولم أكن أملك إجابة لو طرحه، ولا كان يعرف صاحبة

الصور، أو سمع بها من قبل. وحثته وهو يتأملني، يفكر في نزوات
لجنانين لا بد صادفهم في حياته. وبعد عدة أيام سلمني كاتيا الملاك
عروساً في ليلة الزفاف، وفي لحظة العناق الحميم، وبعد خمس سنوات
من الزواج، وحين تصبح جدة بشعر مشوه كشعر الإثيوبية زهورات.
كنت منتشياً بشدة، يدق قلبي بعنف، وأنا أرتب بيتي للحدث
الكبير، عقد قراني على الفرنسية حتى لو كانت صورة، حتى لو كانت
خيالاً. كنت ممتلئاً بالعشق حتى القاع، ولم تعد لي طاقة لانتظار أولئك
الأفارقة غريبي الأطوار إلى أن يفلتوا المرأة التي انتظرها زماناً، فأنا
الآن أمتلكها.. وأمضي بها لمستقبل جديد.

كان موسى الأمي قد بدأ يراقبني بجنون في الفترة الأخيرة، ولا
أدري أكان ذلك اجتهداً منه، أم بتعليمات من أحد يكبره رتبة، لكنني
أصبحت ألمح دراجته كثيراً بالقرب من بيتي، أراه ملتصقاً بالباب حين
أفتح الباب، وأمام المحافظة، حين أتسكع أمامها أحياناً، وحتى بالسوق
إذا مررت بالسوق. وقد أخبرني شاكر تعيس، وأيمن الحضاري، وعدة
أشخاص آخرون في الحي، بأنهم أيضاً يحسون به قريباً من مصارينهم،
وفي أحد الأيام جاءتني الجرأة لسؤاله فسألته.

كان رده غريباً بعض الشيء:

- لا تخف يا جرجار.. أنا أقوم بتأليف قصة بوليسية عن حي
غائب، شبيهة بقصص أرسين لوبين، وأقوم بدراسة الشخص
لأكتبهم فيها.

عاد ميخا ميخائيل يلح في صداقتي مرة أخرى، بعد أن زاره
مندوبون من الإدارة الشرعية، منحوه إنذاراً أخيراً لإتمام عملية الختان
التي لن يصلح إلا إذا أتمها، وسلموه إمساكية شهر رمضان، قبل ستة
شهور من قدوم الشهر الفضيل، وقبل أن يغادروه، درسوه التاريخ

المهجري حتى أتقنه تماماً، قصصوا عليه أحداث فيلم الرسالة كاملة، وجعلوه يشاهد على هاتف محمول، شريطاً للفيديو، تقوم فيه جماعة عراقية متطرفة بذبح مراسل صحفي أمريكي. لم أكن أسمح له بدخول بيتي الذي أعددتُه للفرح الكبير، وزينته بصور عروسي، في المطبخ، في الحمام، في غرفة النوم، وحتى في الصالة الخارجية تشاهد التلفزيون. كنت أفتح له الباب، آخذه من يده إلى بيته، أرقده على سريره المتأرجح وأعود، وأخذته مرة لحليمة المرضعة، التي قرأت كفه المسلم وصرخت صرختها الرهيبة. أيضاً جعلت أيمن داوود، يكتب رسالة مفتوحة إلى المغنية كاتيا البطلة بعد أن عثر على بريدها الإلكتروني، يخبرها فيها بوجود رجل عظيم حرفته تربية البط حتى على راحة اليد وبين شقوق الأصابع، وجاء الرد بعد يومين من الانتظار ليقول، إن مرابي بطناً يربونه حتى بين خصلات الشعر ورموش العيون، لسنا في حاجة إليه. كان ميخا مشكلة بلا حل، وفي كثير من لحظات رداءة التفكير، كنت أود موته.. أن تغتاله ذبحة صدرية مباغتة، أن تتعطل كليته عن ضخ السموم، أن يخرج في باص متهالك، فينقلب الباص، لكنني ما ألبث أن أحس بالتعاطف وأكاد أبكي مأساته كما يبكيها. وقد قلت لشاكر تعيس الذي لم تبق سوى أيام قليلة على زفافه من سلافة، أن يتقاسم معي أعباء ميخا، نحملها معاً على ظهرينا، يوماً على ظهري ويوماً على ظهره، لكن شاكر كان عصبياً للغاية، مزق عمامته وألقاها بعيداً وهو يصرخ.. أنا لم ألدّه من صلبّي لأرعاه، وزوجتي القادمة لا تريد شريكاً في زوجها. هذا حقّها.. أليس كذلك؟

في اليوم الذي رتبت فيه كل شيء، ولم تتبق على زفافي من كاتيا الملاك سوى عدة دقائق فقط بعد أن تأنقت بأناقتي الزرقاء وارتديت حذاء الباتا، وتعطرت بعطر رائع اشتريته خصيصاً، حدث ما لم أكن

أتوقعه، ولم يخطر ببالي على الإطلاق.. سمعت طرفاً عنيفاً على الباب أطار الفرحة من وجهي، ووجه عروسي الجميلة التي كانت أمامي على الكرسي المواجه، تنتظر عقد القران بلهفة، وهي تحديق الشموع الملونة والزينة الورقية التي علقتها على السقف، وقالب الحلوى الذي اشتريته من حلواني رامونا، وكتبت عليه بخط متعرج لكنه واضح.. "علي وكاتيا إلى الأبد". حاولت ألا أهتم للطرق وأواصل طقوس فرحي، لكنني أحسست أن الباب يترنح ويكاد يسقط، انطفأت تماماً، استأذنت من عروسي، وذهبت أستطلع الأمر. كانت دهشتي عظيمة حين وجدت الأخ ميخا، وبرفته شيخ العواني، وفتاة ساحل العاج ذات الرمد والأنيما، واقفين بيابتي. ظللت برهة أحديق في وجوههم، ويحدقون في وجهي، وخیل إلى لحظتها أنهم قراصنة خرجوا من بحر سحيق.

- ألا تدعو الضيوف إلى الدخول يا جرجار؟

قال شيخ العواني، وكان صوته عميقاً جداً وواسعاً جداً، كأنه صوت جمهرة من الناس يرددون جملة واحدة.

- بيتي ضيق يا شيخ.. وعندي عورات مكشوفة.

قلت، وهممت أن أغلق الباب غير عابئ بالفضول الذي تملكني لبرهة واستطعت إلغاءه.. هذا ليس يوم فضول، ولا يوم إحباط، ولا يوم قراصنة خرجوا من بحر سحيق.. إنه يوم عروسي الذي جهزت له كل شيء.. ولن أسمح بإفساده.

- غط عوراتك وتعال.. سنتنظر.. أليس كذلك يا سومية؟

قال والتفت بوجهه إلى فتاة ساحل العاج التي بدت مبتهجة بشدة، وتكاد ابتسامتها الصفراء أن تغطي وجهها النحيف.. كان ميخا ساكناً كأنه صخرة، لا لغة، ولا تعابير في الوجه، ولا حتى رمشة من عينيه اللتين تعشقان الرمش.

- عودوا غداً.. أرجوك يا شيخ.. لا أستطيع إدخالكم اليوم..
- لا ينفع غداً.. بل اليوم وفي هذه الساعة بالذات.. غط عوراتك وتعال.. اذهب.. اذهب..

وكانت صرخة جبارة من ذلك الصوت الذي كأنه ينبع من
جمهرة من الناس.

كنت أبكي لأول مرة في حياتي وأنا أعلق بالسقف، أطيح بالزينة التي قضيت ساعات طويلة في تركيبها، ولم يقدر لها أن تكمل الفرح، ألم عروسي من مواضعها في الصالة والحمام والمطبخ، ومن مكانها على مائدة الاحتفال، أحتضنها بقوة ونبكي معاً، أفلتها لأطيح بقلب الحلوى في قاع ثلاجتي القديمة وأغلقها بمفتاح صدى.. يا إلهي.. لقد ضاع عرسي.. لا لم يضع، فقط تأجل.. فقط تأجل.. قلت لعروسي وهي تدخل الخزانة وفي وجهها بقايا من دموع. دخلوا إلى البيت، التهموا حيطانه الزرقاء بأعينهم، وجلسوا على المائدة الاحتفالية المغسولة بالكولونيا، وكنت ممغوفاً أشاهد فتاة ساحل العاج تجلس بالضبط حيث كانت كاتيا تحتل مكان الملاك.. يا إلهي.. لن أقارن بين الاثنين.. لن أقارن بينهما، وإلا سأموت فجأة.

- ماذا تريدون؟

صرخت، وعيناي تعبثان بصمت ميخا لا لتلوماه، ولكن لتخفاه..

- فسر لي يا ميخا.. ماذا يحدث؟

- ميخا جامد كالصخر ما يزال، وشيخ العواني هو الذي يتحدث:
- كن ودوداً يا جرجار.. نحن هنا لمساعدة أخيك ميخا حتى يهاجر.. وقد اختار خادم سليمان، واسم سيدي شهروس منـزلك لإتمام عملية الهجرة، لن نهاجم عوراتك أبداً، ولن

نشم أكثر من رائحة البخور الذي سنوقده.. وندعوك بتجرد
ونكران ذات، لتكون ضيفاً وقوراً وثابت الأعصاب حتى لو
انشق سقف بيتك، ودخلت صاعقة من الشباك، ورأيت أحاك
ميخا، وقد تحول إلى امرأة لعب.

- ينشق سقف بيتي وتدخل صاعقة.. و..
قاطع صراخي..

- انشفاق مؤقت يلتحم وحده.. وصاعقة مثل ملاءة القطن لن
تؤذيك.. لا تخف.. لا تخف يا جرجار.

كان جنوناً بلا شك، استغربت من كل تلك الطلاسم التي
أسمعها، واستغربت أكثر عن كيفية اهتداء ميخا إلى هؤلاء الناس
ليضمهم إلى قائمة المنغصات التي تحوم حولي منذ أن تعلق بكاتيا
الملاك. كانت غلطة بلا شك أن أصادقه، أن أسمح له بالبكاء طويلاً في
سرتي وأمعائي الغليظة، وأن أسعى ذلك السعي الحثيث لأهاجر به..
والآن لا مفر من احتمال التبعات.. لا مفر.. سقف سينشق، وصاعقة
يملس القطن تدخل البيت، والرجل الكهل قد يفجر في أي لحظة
ويتحول إلى امرأة لعب. من هو خادم سليمان يا ترى؟، ومن هو
سيدي شمهروس الذي ترك حي غائب كله ليختار بيتي بالذات، وفي
ليلة حرصت فيها حتى على جعل مرحاضني نظيفاً لئلا تتلوث؟. سأبلغ
الشرطة حالاً عن ذلك الجنون..

- لن أسمح لكم.. سأبلغ الشرطة الآن حالاً.
قلت وأنا أحاول الثبات.

- لا ينفع يا علي، صدقني، لا شرطة ولا جيش ولا أمن قومي،
ولا قوات حفظ السلام.. سيدي شمهروس بالباب.. وبركاته
على طول الشارع، هل تحب أن ترى بنفسك؟.

ثم اقترب من أذني ليهمس فيها:

— سيدي سيارك عرسك من كاتيا الفرنسية، ألسـت تحبها،
وتريد الزواج منها؟.. والآن قم واحضر جمرًا على مبخـر لنبدأ
في تـهجير هذا المسكين.

لم تكن ليلة ولا ليلتين تلك التي قضاهما العواني وتلميذته العاجية، برفقة ميخا ميخائيل دقندس في بيتي، لكنها ثلاث ليال كاملة، يحترق فيها البخور الخائق بلا توقف. تنطلق الصرخات، والضحكات وتشنجات البكاء أيضاً. رأيت عقارب بأذنان مسنونة تتناسل في البيت ثم تختفي. رأيت ثعابين تفرز السم وهي تضحك، وانشق السقف عشر مرات والتحم. دخلت صاعقة بضوء مباغت، رقدت قليلاً عند قدمي وانطفأت، ونزع ميخا ميخائيل ملابسه فجأة، ربطها على وسطه، ورقص كفتاة ليل مدهونة بالشبق واللعنة. كان العواني ورفيقته ثابتين. ميخا يتأرجح بين الرعشة والثبات، وأنا أرتعد من الخوف، أتحين الفرص لأذهب إلى خزانتي في الغرفة الداخلية، أتفقد عروسي، أطمئن على أنها لم تصب بلدغة عقرب أو سم ثعبان، أو تغتصب بواسطة سيدي شمهروس وأعرانه. أحضنها ونبكي معاً.. قريباً جداً ستنقش العاصفة.. وتزوج.. علي وكاتيا إلى الأبد.. لن يهم ما سأدفعه لرامونا الحلواني، لجلب قالب حلوى جديد، ولن قم الزينة الممزقة التي سآتي بغيرها.. علي وكاتيا إلى الأبد. وبالرغم من اقتناعي الشديد بعدم جدوى طقوس العواني في شأن ميخا الذي حددت حليلة المرضعة مصيره حين صرخت صرختها الرهيبة وهي تقرأ كفه، إلا أنني تمنيت أن يهاجر لا من أجله، ولكن من أجلنا أنا وعروسي الملاك. كنت أزوده بالأكل

والشرب لأن العواني وتلميذته لم يكونا يأكلان أو يشربان أثناء العمل قط، وكنت أفاجأ به يأكل كتيس ملهوف، وقد زاد وزنه إلى الضعف في تلك الفترة القصيرة، وخلته يقول لي من بين صخور صمته، في أكثر من مرة.. تحملني يا صديقي.. سأعوضك عن كل شيء.. سأرسل لك أول أجر أقبضه من الفرقة الموسيقية التي سأعمل فيها.

في الليلة الثالثة وفي آخرها الذي ينادي الفجر لشرق، أطفأ العواني بخوره، عدل عمامته على رأسه، وأخرج مشطاً صغيراً من جيبه، مشط به لحيته المصبوغة بإتقان.. قال.. عودي إلى نفسك يا سومية.. ورأيت فتاة ساحل العاج، تزيل غطاء رأسها، تخرج زيتاً من حقيبتها لتدهن به شعرها، الذي كأنه رزمة مسامير صدئة، تضع بعض البودرة، والمساحيق على وجهها، وروج أحمر بلون الدم على شفثيها، وتبتسم. كانت على مقعد حبيبي ما تزال، ولم تكن تشبهها، حتى وهي في تلك الزينة المبهرجة..

- والآن..

قال العواني بثقة، وهو ينظر إلى ميخا ميخائيل في قعر عينيه:

- لا تبك عند قدمي أحد مرة أخرى يا أخي.. هم سيكون عند قدميك حتى تهاجر.

- هل هناك جهة محددة يا شيخ؟

كان صوت ميخا الذي انطلق بعد ركود طويل، حتى أنه تنحنح مراراً قبل أن يخرج.

- لا جهة واحدة يا أخي، بل جهات..

- ومتى يتم ذلك؟

- قريباً.. قريباً جداً..

ضحك ميخا بعمق، وكانت المرة الأولى التي أسمع فيها ضحكته، وأراها مجسدة على ذلك الوجه الباكي بلا توقف.. نهض العواني ورفيقته ليذهبا، وأنفضت ميخا الذي بدا لي مستقراً في بيتي لا يود الذهاب، بصعوبة، كنت واثقاً أنه يريد أن ينفرد بي، يحدثني عن مشاعر تضحج بداخله في تلك اللحظة، لكنني كنت متعجلاً، ولا بد أن عروسي قد تعبت وتوترت وهي محبوسة في تلك الخزانة المظلمة. أغلقت الباب خلف ميخا، وعدت إلى عروسي بالفعل، أخرجتها من مخبئها وهي تترنج، مسحت عنها العرق، ورتبت فوضى هندامها، عطرقها بالكولونيا، وأعدتها إلى طاولة الاحتفال التي أزلت اتساخها أيضاً. وكان قراراً صائباً ذلك الذي اتخذناه معاً في تلك اللحظة، أن نكمل عقد قراننا حتى لو كانت الزينة ممزقة، لو كان قالب الحلوى قد فسد، والشموع الملونة اختفت حين دستها سومية أحمدو في حقيبتها قبل أن تنصرف. قلت مبروك لنا يا كاتيا، وقالت مبروك لنا يا علي، ثم أخذتها، قبلتها بشغف، ودخلنا معاً إلى حجرة النوم المبخرة ببخور الصندل الذي لا يشبه بخور العواني بأي حال من الأحوال. كان شهر عسلي قد اندلع بالفعل حين ضج الصباح بضوئه وأصواته، وكنت غارقاً في الأحضان والقبل، فوقني لا شيء سوى عري جسدي، وتحتي تلك الصورة التي حورها الإغريقي طاووس، وجعل فيها عروسي متأوهة في ساعة الرعدة الكبيرة. مرة ومرتين وثلاثاً، وما زال جسدي صامداً يستقبل المتعة ويضخها في نفس الوقت.

كان الوقت عصراً حين شعرت بالجوع وشعرت عروسي أيضاً، وكان البيت خالياً حتى من حبة طماطم، أو رغيف خبز إثر غزوة ميخا الكبيرة. استأذنت من عروسي الياعة. ارتديت ثيابي على عجل،

وفتحت هاتفني الذي ظل مغلقاً لثلاثة أيام بطلب من شيخ العواني الذي قال إن سيده شمهروس، ينزعج من نعمات الهواتف، وكاد في إحدى ثورات الغضب أن يحطم محطة لتقوية الإرسال. عثرت على رسالة من أختي عديلة، تسألني عما تم بخصوص أرملتها ذات الخمسة وخمسين عاماً، التي أرادت تزويجي بها. ابتسمت. عثرت على رسالة أخرى من شاكر تعيس يخبرني أن عرسه الذي كان من المقرر أن يقام غداً، قد تأجل إلى الأسبوع المقبل بناء على نصيحة من حليمة المرضعة التي قرأت كفه وكف سلافة اليوم، وشخرت شخيراً غريباً. رسالة ثالثة من أيمن داؤود الحضاري، يخبرني أن موقع عبادي دوت كوم الذي طلبت منه أن يدخله ويرى ما به، قد تم غزوه بالفيروسات، ولا توجد فيه زرافة تصنع القهوة والشاي، ولكن بعض أغنيات الدودو المكسيكية وصور مرعبة لعبدة الشيطان، وشريط فيديو لراقصة استربتيز إيطالية، معلقة على عامود، لكن الرسالة الرابعة هي التي خلخلت عظامي، وحولت زغاريد الفرحة في داخلي إلى نواح. كانت من موسى خاطر الأمني، وتقول بصريح العبارة.

- زواج مبارك يا جرجار.. بالرفاء والبنين... منك المال ومنها العيال.

رددت على رسالته في هلع.. وأنا غير واثق من شيء..

- لا تخبر أحداً أرجوك. لا أريد إزعاجاً في شهر العسل.

وكان رده سريعاً جداً، حتى قبل أن تصل إليه الرسالة:

- من صميم عملي ألا أخبر أحداً. لا تقلق يا عريس.

كنت خائفاً أن يضيع شهر عسلي الذي جاء بعد أن شخت وأقترب من النهاية، وخائفاً أكثر أن أوصف بالجنون ولم أكن مجنوناً. لقد تزوجت كاتيا الملاك لأنني أحبها، وتزوجتني لأنها أحبتني أيضاً. ولو

عرف الحي بذلك الزواج الذي أردت الاحتفاظ به سرياً لفترة مؤقتة، ربما ضاع كل شيء.

أردت هاتفني على رقم موسى، الذي لم أكن أعرفه في السابق لولا ظهوره الآن على شاشة هاتفي، أردت أن أحتلب من ذلك السفينة مزيداً من الاطمئنان ولم أكن واثقاً إنني سأجده. رن الهاتف.. رنة.. رنتين.. ثلاثاً، وسمعت على الطرف الآخر صوتاً لا يشبه صوت موسى يصرخ، أغلق هاتفك فوراً وغير موقعك، إن كنت مخطئاً، واتصل مرة أخرى إذا كنت ترغب في خدماتنا حقاً. فأغلقت هاتفي وقد ازداد الملح بداخلي. أنا مخطئ.. مخطئ بلا شك.. غيرت مكان وقفتي، وأنا مضطرب الأعصاب.

وقفت أمام عركي صاحب البقالة الذي لم يكن متحمساً للقاءتي كعادته في الأيام الأخيرة، وقد فسد الزيتون الإسباني الذي أحضره من أجل كاتيا واضطر إلى إطعامه للبهائم.. ركدت حفاظات أولويز على رفوفه بلا شراء، لأن نساء الحي لا يستخدمن حفاظات، وباع من العسل اليميني غالي الثمن، أوقية واحدة فقط، ولربون عابر، ليس من أهل الحي... أخرج دفتره من تحت طاولة البيع، قبل أن أفتح فمي، مرر الحساب المقيد عليه أمام وجهي وهو يتنهد، وكان مبلغاً تافهاً دفعته على الفور ثم قلت:

- هل هذا كل شيء؟.

- نعم.. كل شيء.

قال ببرود من دون حتى أن ينظر في اتجاهي.

- إذن أعطيتني ستة أرطال من العسل اليميني، وعلبتين تونا العاللي، وسلطة مايونيز أمريكية، ودستة من البيض المستورد، وكيسين من حفاظات أولويز.

كان أبله وهو يسلمني ما طلبت، وأبله، وهو يستلم نقوده مني
عداءً ونقداً، وأبله، وهو يشيعني بنظراته حتى اختفيت.

-11-

خمسة أيام مضت على شهر عسلي الذي حرصت على جعله شهر غسل حقيقياً، بلا ظهور ملفت للنظر في الحي، بلا رد على كل مكالمة ترد إلى هاتفي الذي كان في معظم أوقاته مغلقاً، ولا فتح للباب حتى لو تكسر من شدة الخط. ونوعاً من الرغبة في تغيير المزاج كما يحدث في شهور العسل والحياة الزوجية عموماً، ذهبنا أنا وكاتيا الملاك مرة إلى تلك الغرفة المستأجرة في بيت حليلة المرضعة، أثيرت الإثيوبية التي رأني أفتح الباب، أني جئت لأضع اللمسات الأخيرة على الحجرة، قبل أن تأتي الضيفة، بناء على تكليف رسمي من المحافظة، وأنني قد أغفو قليلاً بها لأن بيتي محاط بعمال يحفرون الأرض ويحدثون ضجة، كنت أكذب حتى لا ينتشر الخبر قبل أوانه، فانصرفت وفي وجهها علامات استفهام كثيرة من كيس ضخم كنت أحمله وفي داخله عروسي البانعة بشتي أوضاعها، حتى وهي عرقانة، أو تستحم. قضينا النهار بطوله نحتلب المتعة ونضحها، جسدانا يلتحمان ويتفككان، يتفككان ويلتحمان، وأنفاسنا تفور وتبرد، وخرجنا في المساء من أجل الذهاب لعرس شاكر تعيس وسلافة الذي كان مقرراً له ذلك اليوم، ولا بد من حضوره حتى لعريس في شهر العسل مثلي، أو مريض بذبحه صدرية في العناية المكثفة. إنها تقاليد غائب التي لا يمكن تغييرها أبداً. فتحت باب الغرفة لأجد الخادمة زهورات ملتصقة به، وكادت أن تسقط على وجهها حين فتحت.. لم تكن تلك التعيسة ذات الشياطين التي قُلب في

وجهي كلما رأيتني، ولكن زهورات أخرى.. أقرب إلى أنثى عجوز دخلت فجأة معهداً للتأهيل. كان شعرها مصبوغاً بإتقان هذه المرة، لم ينس حتى شعرة واحدة، على فمها روج رخيص من منتوجات رامز الشعبية، وقد عدلت حاجبيها حتى صارا خيطين رفيعين. وكانت ترتدي قميصاً أحمر ضيقاً، في طرفه دانتيل زرقاء. استعادت توازنها على الفور ودارت أمامي عدة دورات في شبه رقصة، وكادت أن تسقط حقيقة لأن صندلها كان عالي الكعب، ولم أرها ترتدي صندلاً عالي الكعب من قبل.. استنتجت على الفور أنها مشحونة بشيطان شبيقي استخرجته من استراقها السمع لطقوس شهر عسلي، وأنها قد تنفجر في عناقي بين لحظة وأخرى.. فيفسد الطعم الذي لا أريده أن يفسد. أخرجت صوتي من مكمنه عالياً لأصبح.. يا حليلة.. يا مرضعة.. يا حليلة، ورأيت على الفور ما أذهلني. زال روج الشفتين بسرعة غريبة كأنه لم يكن أصلاً موجوداً، انحلت عقد في الثوب كانت تجعله مخنصراً وضيقاً، ليعود واسعاً وطويلاً، وأسرع غطاء متسخ ليسقط على الشعر ويغطيه.

بلهاء.. قلت

مجنون وتعاشر الجنيات.. قالت.

ارتحت لتفسيرها جدّاً، وأيقنت أنها ستنقله للمرضة على الفور، لكن لا يهم... مجنون ويعاشر الجنيات أفضل كثيراً من مجنون عقد قرانه على لا أحد.

كان عرس شاكر وسلافة قد أقيم في خيمة استأجرت من آل كرام الذين اشتهروا بإقامة طقوس الأفراح والأحزان على امتداد الوطن كله. خيمة قديمة ومستهلكة، وضيقة بعض الشيء، لكنها مناسبة لحي مثل غائب معظم مناسباته تقام في العراء. دخلت إلى لجة العرس وحدي بعد أن

تركت كاتيا بالبيت. شعرت بأنها مصابة بصداع من جراء إرهاق السهر في أحضان ومن ثم تركتها لتستريح حتى أؤدي واجب التهنتة وأعود. عثرت على ميخا متأثراً وسلساً يتسم للجميع، ويلوح بعقود الهجرة التي ستأتيه حتى بيته قريباً.. كان قد قدم التماساً لدى الإدارة الشرعية بمنحه مهلة إضافية في عملية الختان، لأن الجو حار هذه الأيام، وهو مريض بداء السكر، ويخشى من عدم التئام جروحه، وقد أراد بتلك المناورة الماكرة أن يكسب زمناً إضافياً، حتى يفر بجلده من البلاد حاملاً لحمته وآماله.. وبالفعل قبل التماسه وكان شيئاً نادراً لا أدري كيف حدث. عثرت على أيمن الحضاري متأثراً يتسم للمراهقات، وجاهزاً لإيراد خبر الزواج السعيد في موقع الإخوة أون لاين، وجلب تعليقات المهنتين، ودخل منعش شمة بغثة وهويابس الوجه.. ولا بد قد عاد اليوم من سفره الذي لا يستريح منه حتى يعاوده، في فمه سيجارة مشتعلة، وفي يده سيجارة أخرى تسعى للاشتعال.. جلس قربي في صمت من دون أن يضافحني، ولحت دمة كبيرة تشق طريقها على خده.

- ما لك يا شمة؟ هل حدث شيء؟.. هل خسرت في التجارة؟

سألته.. وكنت على يقين أن هذا ما حدث.

- ترانيم مريضة يا جرجار.. وجدوا عندها سرطان الغدد

الليمفاوية، وقد انتشر في كل جسدها تقريباً.. ماذا أفعل؟..

قل لي ماذا أفعل؟.. عرضت على أهلها أن أعالجها على نفقتي

في الخارج ولم يقبلوا، ذهبت للطبيب أطلب نصيحته، فقال

لي: لا يوجد أمل. راسلت شيخ الهاشمي، طبيب الأعشاب

الشهير وأرسل لي خلطة لم تفدها.

لم أكن أعرف بماذا أرد عليه، ولم أكن في الحقيقة راغباً في

تفاصيل مأساة أيا كان نوعها، وأنا في شهر العسل.. نهضت من قربه،

وأفكارى تدور حول عروسى التى تركتها وحيدة وفى رأسها صدى،
ومن بعيد رأيتة ينهض مثاقلاً، ومخى الظهر، ويغادر خيمة الحفل. كان
موسى الأمنى الآن خلفى تماماً، يده على كنفى، وصوته يأتينى كحد
سكين:

- خفف قليلاً من الشقاوة يا عريس.. لست شاباً يا عم..
وكان محقّقاً فى قوله، لأننى بدأت أشعر لأول مرة فى حياتى،
بالدوار حين أقف فجأة، بدأت ركبتائى تؤلمانى بشدة، وبان انحاء
الظهر الذى كنت أخفيه فجأة. كانوا يتحدثون عن ميدع النبوى الذى
سافر اليوم فى الصباح بعد أن استوعب مهاجراً إلى لوكسمبورج،
تاركاً أخاه سوكارنو الذى بكى بحرقة وهو يشاهده يغادر وعاد إلى
البيت ليغلق نفسه فى غرفة ويواصل البكاء.. يتحدثون عن الغلاء الذى
طحن طبقة وزاد من ثراء طبقة فى المجتمع، وذلك القرار الجائر فى حق
البلاد الذى أصدرته محكمة استعمارية وما تبعه من تظاهرات ملأت
العاصمة كلّها. سمعنا أغنيات الزفة تردد بخناجر أعضاء فرقة "يا فرحتى"
المصرية، التى دخلت المدينة مؤخراً ضمن أفواج المستثمرين المصريين
حين فتحت الحكومة أبواب البلاد للأجانب، وكان استثمار الفرقة
ناجحاً لأن كل الأعراس فى المدينة كانت تستدعيها ولا تكتمل زفة
العروس إذا لم يزفوها. ودخل شاكر وعروسه سلافة التى حولتها زينة
العرس إلى ملكة أسطورية، لكنها لم تكن تشبه كاتيا.. لم تكن تشبه
عروسى أبداً.. سمعت تأوهات إعجاب، وعبارات حسد واضح، وقال
أحدهم بصوت صريح، إن شاكر تعيس الذى لم يذق ماء زمزم حتى
الآن، لا يستحق هذه الظبية. جلس العروسان على مقعدين مزينين فى
مواجهة المدعوين، ونهضنا، هجمنا عليهما لتقدم التهنة، وقالت سلافة
حين أمسكت يدها، وقلت: بالرفاء والبنين:

- كنا نتمنى أن تكون كاتيا الفرنسية.. هي ضيفة الشرف في الحفل.. لكن خسارة أنها لم تأت.

لم تكن تدري، ولا أحد بخلاف موسى خاطر، يدري أن كاتيا الملاك موجودة بالفعل في حي غائب، وفي بيتي بالتحديد، ونعيش معا شهر غسل أرفع مكانة من شهر الغسل الذي ستقضيته مع شاكر تعيش. تناولنا عشاء الكوكتيل سريعاً، وصعد المغني فرفور إلى مسرح الحفل المعد من الخشب المطلي بلون وردي، أخذ يغني بعوده وصوته القديمين والجميع يرددون وراءه ويرقصون.. وأعلن مقدم الحفل إن فقررة قراءة الكف التي كانت من ضمن الفقرات في أعراس غائب كلها، ومن المفترض أن تقدمها حليلة المربعة، قد ألغيت بسبب انشغال القارئة في استقبال ضيوف أتوا من بعيد. عاد منعم شمعة مرة أخرى، كان يرتدي قميصاً أسود، وبنطلوناً من الجنيز، يضع سيجارتين مشتعلتين في فمه، وفي يده حقيبة. اتجه إلى العروسين مباشرة، وهو يمشي في تناقل، مد يده مصافحاً وانصرف. كان ذاهباً إلى مأساته بلا شك، إلى حبه الذي يحتضر. كان أغرب ما في الأمر أن ميخا لم يقترب مني أبداً، استمر في نفس بشاشته، وآماله، يوزعها على الجميع لكن لم يقل لي شيئاً ولم أقل له، وتمنيت للمرة المئة أن يهاجر ضد مصيره البائس، الذي أعلنته المربعة حليلة حين صرخت.

كانت مفاجأة حقيقية لي حين التفت إلى مدخل الخيمة، لأرى رجلين يدفعان مقعداً متحركاً، يجلس عليه الرحالة حاكم عذابو، مفاجأة بلا شك، لم أضعها أبداً في حسابي، ولن اسمح لها بإفساد ما تبقى من شهر الغسل، خاصة إنني استقلت من حزب "وطنك الكبير" وقبلت استقالتي. نهضت بسرعة لأفر إلى كوخ الغسل، أغلقه بإحكام حين سمعت صوتاً باطشاً يلسعني في ظهري:

- اجلس مكانك واستمتع بالتوافه يا جرجار.. مثلك لم يخلق للمجد أبداً.

وكان صوت الرحالة، الذي طالما كنت خادمه المطيع في أي زيارة يقوم بها للمدينة من قبل.

وقبل أن أستوعب أو أرد، سمعته يقول مرة أخرى:

- لست ضيفاً عليك هذه المرة، ولكن على أصدقاء يعرفون كيف يقيّمون رجلاً سيرأس الحكومة ذات يوم.

أخيراً انتهى الحفل. أطفأ فرفور صوته، نهض العروسان ليذهبا إلى فندق في وسط المدينة، حيث يكملان بهجتهما، ونهضت مهرولاً إلى البيت لألحق بكاتيا، وأنا أتمنى أن يكون قد زال صداعها وإرهاقها، وتزينت لعناقي.

كنا نقرب من نهاية شهر العسل، حين اتفقنا أنا وكاتيا في صوت واحد، أن نعلن زواجنا رسمياً، نوثقه بكل الموثيق، ونظهر في الحي والمدينة كلها، جنباً إلى جنب كما يظهر الأزواج. كنت معتزماً تعميق الصلة ببعض الأسر في الحي، بعد أن انتهت عزوبيتي الطويلة، وفتح بيتنا أمام الضيوف كأبي بيت يفتح. وقد رأت كاتيا أن تستقر لفترة في حي غائب قبل أن نحزم أمتعتنا، ونشد الرحال إلى باريس. لن يكون بعد اليوم سفر إلى المجهول، ولن تكون ثمة دعوات تلي عند حكماء إفريقيا أو غيرهم، وستتنازل عن لقبى الملاك والجوهرية البيضاء اللذين منحوهما لها، لتسعد بقلب من عندي شخصياً، وهو كاتيا العسل. علي وكاتيا إلى الأبد.. كتبت تلك العبارة على كل ركن في البيت، وغداً أكتبها في الشوارع والحدائق وحافلات النقل العام، وكل شبر تطأه قدمانا أنا وكاتيا معاً. وكان أجهل ما فيها أنها لم تسأل أبداً عن ماضي الطويل في مغازلة النساء ووعدهن بالزواج، كانت تعتقد بأن الرجل يقاس بحاضره، وليس ماضيه. كلنا نملك ماضياً قد يكون بديفاً، لكن الحاضر ملكنا الآن وسنجعله مشرقاً. لقد قال الرحالة عذابو، إنني لم أخلق للمجد، وليته يعلم أن الجحد ليس في وهم رئاسة حكومة لن يرأسها، ولكن في امتلاك قلب كبير يحبك، وصدر واسع يضمك، وخصر أشد نعومة من الحرير، يتمايل بين ساعديك.

كانت قد وقعت أحداث عدة في تلك الأثناء، فقد عادت الجميلة سلافة إلى الحي بعد سبعة أيام فقط من زواجها، وذهابها إلى رحلة شهر العسل. كانت مطفأة، وذابلة، وعلى وجهها آثار عض وأظافر. شاهدوها تهب من عربة للأجرة أمام بيت جدتها، بلا حقيبة، ولا زوج. وأسرعت أستطلع الأمر حين أخبروني برسالة هاتفية، بعد أن استأذنت من عروسي. في بيت الجدة الضيق كان الزحام على أشده، نفس الزحام الذي غنى ورقص في العرس، والتهم عشاء الكوكيتل، وتابع العروسين، حتى اختفيا عن الحي في السيارة المزينة. كانت الجدة منكسة الرأس، تنقر بعصاها الأرض، ولا ترد التحية لأحد، وكانت سلافة، أشبه بتمثال من الشمع تعرض إلى هب حار. ماذا حدث؟، ولا رد.. ماذا يا سلافة؟ ولا رد.. أين زوجك شاكر؟.. ولا رد.. أخبرينا يا جدة بخيتة.. ولا تخبر.. ساعتان أو أكثر، فار فيها فضول الحي كله، ولم يرد. وانصرفت أخيراً وأنا موقن تماماً، بأن مأساة كبيرة ولعينة قد حدثت، وهما هي المرأة الرابعة في حياة تعيش، تفر في بواكير شهر العسل.. كنت أتحسر على سلافة الجميلة، أتحسر على ذلك الوجه وأنا أطلع جروحه، وأتذكر كيف كان يلعب بخيالي وخيال كل من كان يشاهده في حي غائب.. وفي مساء نفس اليوم وأنا أتهيأ للولوج إلى الدفء بجانب عروسي العسل كما سميتها، سمعت طرق سلافة على الباب.. أعرف طرق أصابعها الرقيقة، وأميزه من بين ألف أصبع تطرق الباب، أجلت نشاطي المحموم، سترت عورتي بسرعة، وأسرعت.. كانت هي بالفعل، مطفأة بنفس انطفاء الصباح، وتضع عدداً من لرق الجروح على وجهها.. كانت تتلفت في حذر، وأدارت وجهها بعيداً عني حين انفتح الباب وبدا أنها أرادتني أن أحاطب فيها سلافة القديمة، لا التي تقف الآن بائسة ومشوهة:

- أرجوك يا جرجار.. أرجوك ساعدي.. لن أعود إليه.. لن أعيش معه أبداً.. سأنتحر قبل أن يلمسني مرة أخرى.
ثم بكت بحرقة، وكنت أسمع بكاءها لأول مرة.. فقد كان جمالها الأخاذ دائماً ما يمنحها بالسعادة، ولم يسمح من قبل لدمة أيا كانت أن تشوه ذلك الوجه.

- ولكن ماذا حدث؟.. ماذا حدث حقيقة؟

- تفاهات.. تفاهات لا أستطيع قولها..

- قولها أرجوك..

كان الفضول بداخلي قد أطفأ رغبتى المحمومة في عناق كاتيا، وأكداد الآن أعرف ما حدث في شهر غسل الجميلة، لكنني أردت أن اسمعه..

- قولي يا سلافة.. قولي..

- كان يربطني إلى السرير، يعضني ويضربني..

ولم تكمل عبارتها، رأيتهما نفر من أمامي.. كطيف، وكنت واقفاً أتابع ظلها يختفي بين الأزقة، وأنا عاجز حتى عن إيجاد كآبة مناسبة أرنديها.

منعم شمعة، عاد في أحد الأيام، وقطعت أيضاً وقتاً غالباً من أوقات عسلي وذهبت إليه، لم تكن في داخلي رغبة أكيدة لسماع مأساته عن الحبيبة التي تختصر، وتفصيلها الجديدة التي لا بد عاد يحملها من سفره، لكنني رأيت ذلك واجباً ينبغي القيام به.. كان أول ما لفت نظري حين اقتربت من المحل، تلك اللافتة الجديدة التي تعلوه، وقد كتبت بلون ذهبي وزخرفت حوافها بالأخضر.. محل كريمان.. أصبت بالدهشة والاستغراب وأسرعت إلى داخل المحل راكضاً برغم وجع الركبتين. كان منعم شمعة مشرقاً جداً.. يرتدي قميصاً أبيض بكم

قصير، وينطلقوناً رمادياً واسعاً، كان قد قص شعره بقصة شبابية، ولم تكن في فمه سيجارة.

- ما هذا يا شمعة.. لماذا غيرت اسم المحل؟

رد وابسامة عريضة تملأ وجهه..

- كريمان صابر.. الرحلة رقم ستة ستة صفر.. الدوحة - بكين، ست عشرة ساعة بلا توقف.

- وترانيم؟ ماذا حدث لترانيم؟

لم ينطفئ إشراقه، أو يتقلص، ولم يبد مذنباً، أو تحت وخز الضمير.. وهو يفتح إلوم الصور في هاتفه النوكيا، ليريني صورة جذابة التقطت على سلم طائرة لأحد الخطوط العربية، ولواحدة لم تكن جميلة فقط. لكنها آية مجسدة للحسن:

- لا أدري يا جرجار.. لا أدري حقيقة.. فأنا لم أذهب إلى الشام مرة أخرى قط.

أردت أن أسأله أسئلة كثيرة ولم أفعل، أن أحدثه عن وسخ التجارة حين تستخدم في الحب ولم أحدثه.. حبيبة ميتة.. يعني صفقة خاسرة.. تعوض وبسرعة رهبة. تذكرت وجهه في عرس شاكر وسلافة، وكيف كان صوته منهزماً، وظهره مخنياً، وسيجارتان مشتعلتان تدخلان رئتيه، وزاد استغرابي من كل شيء.. كان يحدثني عن صفقة مبررات الماء التي تعمل بلا أية طاقة معروفة، والتي أتمها أخيراً.. عن العم كين ياو، الصيني صاحب أكبر مصنع لإنتاج حقن البلاستيك، حين دعاه لمشاركته في مصنعه ولم يقبل، وعن الراقصة لي قهاي أو زغرودة الصين كما يسمونها، التي تناول معها عشاء مكوناً من الخضراوات المسلوقة، وكان سلساً بمذاق لحم الضأن. تركته وحديثه لم ينقطع، وعدت إلى نفسي سريعاً.. علي

جرجار، حبيب كاتيا الذي لن يتخلى عنها وعن حبها، تحت أي ظرف.. علي وكاتيا إلى الابد.

ميخا من ناحيته، انتظر بشارة شيخ العواني بلا كلل، ولدرجة أنه ترك باب بيته مفتوحاً حتى لا يضطر أي قادم إلى طرقة، وحين أو شكت بشاشته أن تسقط عن وجهه، ويعود البكاء مرة أخرى إلى عينيه، ذهب إلى مقابلة الشيخ.. وكانت صدمته كبيرة حين أخبره العواني، أن خطأ ما قد حدث في ذلك اليوم في بيتي، حين غفا سيده شمهروس للحظة، وذهبت عقود الحجره كلها إلى رجل اسمه ميخا نجار، استغلها بسرعة غريبة، وهاجر إلى ست دول في وقت واحد. سأله عن تكرار التجربة مرة أخرى، لكن العواني قال إن تجاربه مرة واحدة، ولا تكرر. ذهب إلى الإدارة الشرعية طواعية، سلمهم لحمته العجوز، حيث ذهبوا به إلى إحدى المستشفيات الفقيرة وجزوها هناك. سلمهم بقية أمره، وأنه قد يموت فجأة من الجوع أو الالتهار العصبي، أو نقص علاجه لمرض السكر، لكنهم كانوا قد انتهوا.. لم تعد تابعاً لنا إلا في موائد شهر رمضان المعدة للفقراء فقط.. قال أحدهم.. ابحت عن رزقك بما يرضي الله يا أخ مختار.. قال آخر، وكتب كلمة تم بحمد الله في آخر صفحة من ملفه. واسيته بما استطعت من مواساة، اقترحت عليه تقديم شكوى ضد شيخ العواني في كل المحاكم، وسأتي لأشهد معه، لكنه لم يقتنع، قال.. أخاف من سيده شمهروس.. أخاف، وابتدأ نوبة من نوبات بكائه القديم. وفي اليوم التالي شاهده عدد من الناس، يحمل حقيبة صغيرة سوداء اللون، على كتفه ويغادر الحي بعد أن علق على باب بيته لافتة تقول "بلا عنوان"، وقال للذين سألوه: إلى أين يا ميخا ميخائيل؟

- إلى الموت.

لا أستطيع أن أصف شعوري حين علمت باختفاء ميخا المفاجئ،
وفشل كل المتطوعين الذين تبعثروا هنا وهناك، في العثور عليه، كان
شعوراً غريباً، نصفه فرح لانعتاقه من رعايته والتفرغ لبيتي وعروسي،
ونصفه بكاء على رجل حددت حليلة المرضعة مصيره منذ زمن، حين
صرخت صرختها الرهيبة.

-13-

أول مكان ظهرنا فيه أنا وحبيبي كاتيا علناً في الحي، كانت بقالة عركي، أخبرتني برغبتها في شراء بعض الحاجيات لها وللبيت، وأخذتها إلى هناك. كنت أرتدي أناقتي الزرقاء مغسولة ونظيفة وأنتعل حذائي الباتا بعد أن لمعته بالورنيش، وكانت هي بفستان أزرق فريد في التفصيل، وبرز الكثير من فنتتها، وقد جعلت شعرها مرسلًا حتى لامس كتفيها الناعمين. سرنا قليلاً في الشوارع وأنا ألاحظ نظرات الحسد والدهشة من كل صوب، وحين وقفنا أمام عركي، سألتني بطرف لسانه: ماذا تريد يا جرجار؟. تغاضيت عن عدم ترحيبه، وأشرت إلى زوجتي، قلت: ليس أنا ولكن هي تطلب زجاجة من زيت عباد الشمس، وستة أرطال سكر، وخمس علب تونا، وعلبة كريم نيفيا، ومشطاً للشعر بعد أن ضاع مشطها الباريسي في فوضى شهر العسل، ولم تعثر عليه. رأيت عركي يتلفت ببله، ويمد بصره من خلف طاولة دكانه إلى الطريق، ثم ليسألني..

أين هي يا رجل.. هل جئنت؟..

- بل أنت المجنون.. تقف أمامك أجمل نساء الأرض، ولا تراها؟

صرخت في وجهه..

- والآن اذهب واحضر ما طلبته كاتيا..

كان يرتعد بشدة، يتلفت خلفه في هلع، وهو يصعد سلماً خشبياً في البقالة ليأتي بعلبة النيفيا التي لم تكن من ضمن السلع الرائجة في حي

غائب، يعود ببقية الأشياء ليقف أمامنا مرتعداً ما يزال، ولاحظت أنه لم يفتح دفتره على اسمي ليسجل المشتريات، كما كان يفعل دائماً.

- قيد الحساب على اسمي.. لماذا ترتجف؟

- لا ضرورة لذلك يا جرجار.. هذه هديتي لزوجتك.

ثم ضحك، وكانت ضحكة مرتبكة لأنها انقطعت عدة مرات قبل أن تكتمل وكنت مستغرباً من سلوك عركي، لم يهنئي حتى بالزواج بعد أن غدا رسمياً، ولم يمد يده ليصافح عروسي الجميلة، وأغفل تقليداً قديماً في حي غائب، حين لم يدعنا إلى بيته لتتعرف زوجتي إلى أسرته، وتمد جسور الصلة.. ولولا أنه أعفاني من نقود المشتريات، لقلت تافهاً وسخيفاً ويستحق الصفع. قلت

- ستشرفنا قريباً في البيت بمناسبة إعلان زواجنا أنا وكاتيا..

سنقيم حفلاً صغيراً ندعو إليه الأصدقاء.

قال..

- حاضر.. حاضر..

ورأيتُه يعث بمفتاح ضخيم من مفاتيح صيانة الدراجات، أخرجه من أحد أكياس البلاستيك، وهويتحدث إلي. أخذنا كيس الحاجيات وابتعدنا، ولحتة وأنا ألثفت خلفي، يغلق دكانه بسرعة ويهرول مبتعداً، وقد سقطت عمامته على الأرض ولم يرفعها.. ما له عركي اليوم؟ قلت في نفسي، لكنني لم أهتم، فلا بد أن ظهوري المفاجيء برفقة تلك الزوجة الأوروبية الفاتنة قد أربكه، وغالباً ما سيربك أهل غائب كلهم حين يروننا معاً.. لن أهتم. التفت إلى عروسي، سألتها إن كانت ترغب في الذهاب إلى وسط المدينة بعد أن ظللنا محبوسين شهراً كاملاً؟، فرحبت بالفكرة. كانت قد مضت أشهر طويلة منذ خرجت من باريس إلى إفريقيا، ثم إلى أحضاني بعد ذلك، وتود أن تقرأ بريدها

الإليكتروني، وترسل بعض الرسائل لأهلها ومعارفها، لتطمئن عليهم، وأيضاً لتخبرهم بزواجها من رجل جذاب الثقته في منطقة بعيدة، وبحركة سريعة لم يلاحظها المارة، مدت يدها إلى خدي، قرصته بنعومة وهي تقول:

- جذاب وهمجي في نفس الوقت.. ما أسعدني يا علي.

وما أسعدني يا كاتيا..

قلتها وأنا أمد يدي، لأقرص خدها أيضاً.

عثرنا على سيارة للأجرة بسهولة، في حي يصعب فيه الحصول على سيارة للأجرة، ولعله حظ كاتيا العسل، الذي كنت موقناً بأنه أكبر حظ في الكرة الأرضية، فتحت باب العربة وأركبته في الخلف، وركبت بجانب السائق حتى أراقب عينيه حين تحاولان النيل من جمالها، كنت أصف لها معالم الطريق والعربة تمشي.. هذا خزان المياه الذي نشرب منه منذ استقلال البلاد.. هذا نادي الخيول الذي أسسه الإنجليز حين استعمرونا، وكان عامراً بالخيول والخيالة، والآن تحول إلى مصلحة الضرائب، تلك المرأة البيضاء التي تجلس على الأرض هناك، اسمها حمدة، وهي أشهر متسولة في المدينة ويقال إن لديها ثروة عظيمة تدفنها تحت الأرض اكتسبتها من جراء التسول لنصف قرن، هذا الشرطي الذي يوقف السيارات بلا سبب، اسمه عوض الله كوة ويلقبونه بعوض المنشار، انظري كيف يدس الرشوة في جيبه. وذاك البيت الأخضر على ناصية الشارع، حدث فيه مأساة عظيمة، حيث قتل مالكة قبطان إحدى السفن، جميع أفراد أسرته بالرصاص.. وانتحر. كانت تبتسم أو تغتم، أو تهر رأسها هزات متتابعة، بحسب ما أصفه لها.

فجأة قاطعني السائق، ولونه شاحب بعض الشيء..

- من تكلم يا أخ؟

- زوجتي.. زوجتي الفرنسية.

وأشرت إلى المقعد الخلفي.

وبحركة لا إرادية، التفت بوجهه إلى المقعد الخلفي، ثم ارتد مرة أخرى، ولاحظت أن العربة قد بدأت تتعرج في سيرها، مرة يميناً، ومرة يساراً، وتكاد تصطدم بكثير من العربات الأخرى على الخط المعاكس، سكران بلا شك.. قلت في سري، ولن يكون ذلك جديداً على سائق للأجرة. وكلهم يشربون العرق، والبوظة، وكل مصائب الدنيا. رفعت صوتي لأوبخه:

- كيف تقود عربتك وأنت سكران هكذا؟.. ألا تخاف على

تلك الأرواح التي تحملها؟، ثم هذه المرأة الضيفة، ماذا ستقول

عنا حين ترجع إلى بلادها؟

كنت أشير إلى المقعد الخلفي، وأنا أصرخ، التفت السائق مرة أخرى، وارتد، ليزيد في رعونته، وأفلتنا من شاحنة محملة بالأسمنت، جاءت من الطريق المقابل، بمعجزة.

أخيراً وصلنا إلى السوق، وتوقف السائق أمام كرزي كافيه كما طلبت منه، أخرجت محفظتي لأدفع، لكنه رفض بشدة:

- على حسابي من أجل الضيفة يا أخ.. لا تغضب مني.. أنا

مدمن على السرعة منذ تعلمت القيادة، ولا أستطيع التخلص من ذلك الإدمان.

رائع جداً.. حظ كاتيا العسل مرة أخرى بلا شك، وسائق سكران يتنازل عن أجره، والمسافة بين حي غائب والسوق، ليست سهلة ليتنازل فيها أحد عن أجر. لنر الآن كيف سيكرمها عبد الله جتي، حين تستخدم شبكته العنكبوتية.

كان كريزي كافيه شبه خال في تلك الساعة من النهار، وقد بدت معظم كومبيوتراته صامتة، تخلد للراحة بعد استخدام طويل، لم يكن أيمن داؤود الحضاري موجوداً، لكن جني كان في غرفته الزجاجية، يدخن سيجارة بمبسم ذهبي، ويلمع حذاءه بالورنيش. أجلس كاتيا على مقعد متماسك أمام أحد الكومبيوترات، وذهبت إلى جني، الذي ترك حذاءه نصف لامع، ونهض ليصافحني:

- مرحباً يا جرجار.. هل صحيح أنك استقلت من الحزب، وقاطعت الرحالة حاكم عذابو؟

- نعم.. وتزوجت أيضاً.

- تزوجت؟.. أنت تزوجت؟

كان يضحك في هستيريا، وأنا في قمة الصرامة، لم أشاركه ضحكه، ولا بد أن كل الذين عرفوا غزواتي التافهة على مدى الخمسين سنة الماضية، لن يصدقوا مثله.

- من يا ترى سعيدة الحظ هذه؟ لا تقل لي سريرة بائعة الشاي أمام مبنى المحافظة أو أمونة تتم بائعة الخضار التي اشتكتك للقاضي بتهمة إيذاء المشاعر؟

أحسست بالقرف من تخمينه الذي كان في الواقع تخميناً رديئاً، ولا يناسب قدرتي ومكانتي، بعد أن تحضرت، وأصبحت رائعاً وأنيقاً بشكل لا يوصف.

- تزوجت من النجمة الفرنسية كاتيا كادويلي.

لم يعن له الاسم الذي نطقته شيئاً، ولا بد أن أبحاث أيمن الحضاري كانت تجري بعيداً عن رقابته، وهو لم يكن في الحقيقة رقيقاً، ولكن صاحب محل مفتوح، يجلب بعض الرزق، ويعربد فيه من يشاء.

عاد يضحك بهستيريا مرة أخرى، وأمسكته من يده التي كانت كعود من الحطب:

- تعال إلى الصالة لأعرفك عليها، ولتساعدنا في فتح بريدها الإلكتروني.

أخذته إلى حيث كانت تجلس عروسي أمام الجهاز المغلق تنتظر، قلت له: كاتيا كادويلي، زوجتي النجمة.. قلت لها.. هذا عبد الله جني صاحب الكافيه والعضو السابق بحزب البعث الاشتراكي. مدت يدها لتصافحه، ولم يمد يده التي كانت ترتعش، وقلت من المؤكد أنه من صنف لا يجب مصافحة النساء. طلبت منه أن يفتح لنا الإنترنت عند ياهو، لأن بريد كاتيا في ذلك الموقع الكبير. فتح الجهاز والإنترنت، بلا تردد.. واستأذن في الانصراف ليكمل تلميع حذائه. كانت كاتيا تتصفح بريدها في تأن، تقرأ الرسائل، وتكتبها، تضحك تارة، وترسم على وجهها علامات الدهشة تارة أخرى، وكنت أشاهد عبد الله جني في غرفته الزجاجية، يبحلق بعينه ناحيتنا مستغرقا، وكان حذاؤه على الطاولة بنصف لمعة ما يزال.

كان الوقت ظهراً، وكنا جائعين، التهمنا سندويشين سريعين من كبد الدجاج في أحد الأكشاك المنتشرة في السوق، وسط نظرات صاحب الكشك التي ما تركت في جسدنا شبراً إلا نهشته.. وكانت كاتيا تريد موسيقى هادئة، لتهدي بها أعصابها حين تتوتر.. ومن ثم عرجنا على الدسوقي صاحب كشك الأغاني المسروقة، وكانت ثريا الضاحكة هناك وقد عادت إلى ضحكها المثير حالما لمحتني..

- علي يا جرجار.. طال غيابك يا شقي؟ أين كنت؟

- في شهر العسل.

قلت وأشرت إلى زوجتي..

- هذه زوجتي كاتيا.. قبلها.. وباركي لها.

خرجت من الكشك مسرعة لترى تلك الزوجة ذات الاسم غير المطروق محلياً، مدفوعة بفضول النساء، لكنها لم تقبلها، أو تبارك لها، سمعتها تشتمني في تتابع، وهي تضحك. وجاء الدسوقي بعد أن أوقف سرقة لأحد الأشرطة، يستعلم الأمر.. أخبرته ثرياً بما ظنته مقلباً مني، ولم يكن كذلك في الحقيقة، ولكن غيرة نسائية منها، لكنه سخر بمد لسانه، ولم يلق حتى بنظرة فضولية على زوجتي. قال: خذ كل أشرطة كاتيا البطة التي لدينا واذهب، ليس لديها سوق هنا، ولا أحد يسمعها غيرك.

قلت.. موسيقى فرنسية هادئة من فضلك.

رمى لي بشريطين مسروقين، وعاد إلى عمله.

- 14 -

قلت لحليمة المرضعة وأنا أقدم إليها كاتيا كادويلي، وأخرج مفتاح غرفتها المستأجرة لأضعه على الطاولة أمامها:

- لم نعد بحاجة للغرفة يا مرضعة، لقد تزوجنا أنا وكاتيا منذ فترة، ونقيم الآن في بيتي. تعالي وزورينا، إن سنحت لك فرصة. لم يبد على المرضعة أنها فوجئت أو اهتزت، بعكس خادمتها التي تغير لونها فجأة، وسقط غطاء الرأس عن شعرها العجوز، وهي تصرخ.. معه جنية يا مرضعة.. جنية سنؤدينا.

زجرتها حليمة بصوتها الباتر، وبتهديدها الدائم، أن تعض ثديها إذا لم تسكت، ومدت يدها لتأخذ المفتاح، وتصافح عروسي، بل أكثر من ذلك، تنازلت عن نفورها القديم من قراءة كفوف النصارى، وقرأت كفها، لا باعتبارها نصرانية، ولكن ضيفة عليها وعلى الحي كله.. ثم تناو لت كفي، مسحتها بماء له رائحة ليمون فاسد، وقرأته في تأن، لتبتسم في النهاية وتبارك زواجنا، وتقول في صوت هامس: لديكم ضيف في الطريق يا حلوين، إنه يتكون الآن.. حافظي على نفسك يا شابة.. لا تحملي أشياء ثقيلة، لا تدخلي الحمام، إلا إذا وضعت رجلك اليمنى أولاً.. ودعي هذا القرد يقوم بتنظيف البيت، والطبخ، وغسل الصحون، حتى تضعي حملك.

كان خبراً سعيداً بلا شك، بل أسعد خبر يمكن أن أتصوره، وأنا الذي ظننت بأني سأفارق هذه الدنيا من دون ذكرى أو أثر. وللحظة

أخذت أفكر في حياتي التافهة القديمة كلها.. فاطمة.. جواهر.. ست النساء.. زهورات.. سريرة.. ميمونة، بائعات شاي الفقر، وخادמות البيوت.. النازحات من إثيوبيا وتشاد وضراوة الحروب الأهلية هنا وهناك، لا يملكن ماضياً ليفخرن به، ولا مستقبلاً يرتقي بهن.. حقاً كل شيء بأوانه، وما كانت تلك الحياة البائسة التي كنت أحيها، إلا تمهيداً لحياتي المنعشة الجديدة.. عانقت كاتيا وعانقتني، وصحت.. علي وكاتيا والصغير القادم إلى الأبد.

كان عند المرضعة غرباء يملأون البيت كله، وبينهم رجل أشيب منتفخ العنق، يمص عظماً من عظام الدجاج، وهو مستند إلى وسادة، واستنتجت أنه العمدة صاحب الحلال، ونساؤه وعياله، وقد جاءوا من الجزيرة الخضراء بعد أن تحسن وضعهم، ولا أنسى أن المرضعة كانت سخية جداً حين استقبلتنا في غرفة نومها بعيداً عن أعينهم، وحين رفضت أجرة في قراءة الكف، إكراماً لزوجتي الضيفة، وحين فتحت محفظتها القديمة لدهشتي الشديدة، وأعدت إلي مبالغ الإيجار التي كنت قد دفعتها لها من قبل كاملة بلا نقص. حظ كاتيا الكبير.. ويا لحظ كاتيا الذي سيجعلني متخمة الجيب إذا استمر متدفقاً بهذا الشكل. خرجنا من عند المرضعة ليفاجئنا الطريق بما لم نكن نتوقعه، فقد عثرنا على عدد كبير من سكان الحي، بينهم أيمن الحضاري، وسوكارنوالنبوي وسلافة الجميلة بعد أن التأمّت جروحها واكتست شيئاً من غرورها القديم، وحتى الأممي موسى خاطر الذي كان بلا دفتر ولا جهاز لا سلكي.. كانوا يحملون هدايا رمزية اشتروها من محل كريماني الذي كان اسمه ترانيم في السابق، وقالباً كبيراً من تورته القرع، والتي تصنع محلياً في الحي بأيدي نساء خبيرات، قدموه لنا بمناسبة إعلان زواجنا، وكان منقوشاً عليه بخط جميل، إلى أحلى عروسين.. علي

وكاتيا. حملته بيدي تاركاً عروسي الحامل، تضج في وسطهم، تخبرهم أنها تركت دراستها العالمية التي أتت من أجلها تذهب إلى الجحيم، وإنها غارقة في السعادة والسرور، لارتباطها العميق بهم، بعد أن انصهرت في دمائهم بزواجها بواحد من أهل الحي أنساها تجربتها السابقة في مطلع شبابه. وهنا كانت كلمة مكتوبة على ورق مسطر، تقدم عركي صاحب البقالة ليقرأها بصوت لا يشبه صوت قراءته للديون.. في البداية اعتذر عن سلوكه ذلك الصباح، حين فاجأته برفقة عروسي الأوروبية، التي لم يكن يتوقعها، ثم وصف مشاعر الحي وارتياح أهله كلهم لذلك الزواج الميمون خاصة أنه طال واحداً من أشهر العزاب في التاريخ. وفي النهاية أعلن أنه خابر مندوبي جمعية القفص الذهبي الخيرية التي تدعم المتزوجين حديثاً، ووعدوا بإرسال شيك سيسلمه إلى حالما يصل. كانت في تلك الزفة وجوه لنساء من ضحايا حياتي الفاسدة القديمة، لكنها لم تكن غاضبة، ولا مستاءة، كانت منتشية كانتشاء الجميع. أوصلونا إلى بيتنا مرددين أغنية "الهوى يا هوى" التي كانت ضمن أغنيات فرقة "يا فرحتي" المصرية، وحفظها الجميع برغم صعوبة كلماتها، ولحنها، وذلك من أجلنا.. أنا وعروسي.. علي وكاتيا إلى الأبد.

لا أدري لماذا تذكرت ميخا في تلك اللحظة، ولماذا كدت أفقد نشوتي وأحزن، وقد مضت أيام طويلة منذ ترك الحي، ولا يدري أحد إن كان ما يزال في الدنيا أو تركها أيضاً. لم يكن ميخا يملك حظي بلا شك، ولا كانت للمسكين كاتيا أخرى تلون حياته، كتلك العروس اليانعة التي ترقد الآن بقربي، وأخاف أن ألمسها.. لا مللاً من لمسها، ولكن خوفاً على الصغير الذي أريده، وتريده هي، ويريده المستقبل، حين يحمل اسمي. قلت لكاتيا وأنا أمسح بيدي على بطنها:

- ما رأيك الآن؟

- كل شيء رائع..

ردت وهي تضع يدها على يدي، لتتحسس طفلنا القادم معاً.
سنسميه جرجار لو كان ذكراً، وكاتيا الصغيرة لو كانت أنثى.. كنا نريد أن نمثد حتى بعد أن ينتهي العمر.

ما تلا ذلك اليوم، كان غريباً بحق، سلمني عركي شيكاً بمبلغ محترم من المال، أرسلوه باسمي من جمعية القفص الذهبي الخيرية، وكان دعماً لتسوقنا أنا وكاتيا ليس عند عركي، ولكن في تلك المحلات الكبيرة التي انتشرت فجأة في وسط المدينة، وكانت غاصة بكل ما تشتهي النفس.. ندخلها دافعين أماناً عربة صغيرة من الحديد اللامع، هي عربة التسوق، ونخرج وقد حملنا أكياساً ثقيلة على اليدين، وكنت قد أقسمت ألا أمس نقود كاتيا أبداً.. ومنعتها هي أيضاً أن تمس تلك النقود. إنه واحد من تقاليد غائب ولم أرد خرقه. فتحت عشرات الأسر في الحي بيوتها لاستقبالنا كأسرة، وأهدت كثير من النساء المحليات زوجتي، بعضاً من عطورهن المحلية كعطر الخمرة، إذ يثقل تماماً أنفاً أهم شيء في زاد الليل، لا يستطيع الرجال مقاومة سلطانها، ومن ثم ليال دافئة وممتلئة. كنت أشم تلك العطور على جسدها وأتوتر.. أخاف على طفلي من هياجي، وأنام، وقد حلمت أحلاماً تعيد الجسد إلى سكونه.. العابرون في الطريق يحيوننا.. مرحباً علي.. مرحباً كاتيا، راكبو الحافلات وباصات النقل، يصفرون.. مرحباً علي.. مرحباً كاتيا. وحين ولدت طفلة لعركي صاحب البقالة في تلك الأيام، سماها كاتيا على الفور، وجعل عروسي تحملها بين يديها وتقبلها، ولم تمض على ولادتها لحظات قليلة. وكنا حين نزور كريس في كافيه من حين لآخر، حتى تفتح كاتيا بريدها، يترك عبد الله جثي مشاغله، ويهرول

ناحيتنا.. يجلسها على أفضل جهاز عنده ويقوم طواعية بفتح موقع ياهو حتى تقوم بقراءة بريدها، وحين يصدف أن يكون أيمن الحضاري موجوداً ساعة قدومنا، نراه وقد غاص طواعية في مواقع كثيرة، وجاء يمدنا بآخر أخبار الأسهم والبورصات الأوروبية. وجاء مرة بخبر نشرته إحدى الصحف في أوروبا عن الممرضة النجمة كاتيا الملاك التي تخلت عن ألقابها الإفريقية كلها، وتزوجت برجل جذاب في بلاد أخرى، لقبها بكاتيا العسل، وهي سعيدة بالرجل واللقب على حد سواء.

-15-

الغيرة هي السبب.

هكذا كنت أردد ولا أمل التردد، حتى وأنا نصف غائب عن الوعي في تلك الدهاليز السحيقة التي أخذت إليها، أو موصولاً بأسلاك الكهرباء التي تبرز على ذاكرتي وتفسد كل تلك السنوات التي قضيتها وأنا أتدرب، لأموت بذاكرة لا تنسى، حتى سكرات الموت حين تأتي.

الغيرة هي السبب.

كنت أسمع عن مرض الغيرة كثيراً، أسمعهم يقولون.. يا غيور.. ويا غيورة. أسمع عن نساء متن مهشمات بسبب غيرة الأزواج، ورجال تقطعوا إلى أشلاء، وبعثروا في سلال المهملات، لأن زواجهم شمن رائحة امرأة أخرى على أجسادهم. وحين كنت شاباً في مطلع الثلاثينيات، شاهدت شريطاً سينمائياً مصرياً اسمه "زوجي الغيور"، وضحكت كثيراً من بلاهة الزوج الذي كان يخرج ثياب زوجته كلها من الخزانة، كلما عاد إلى البيت من عمله، يشمها ثوباً ثوباً، يدخل الحمام، يشم إصبع المعجون وصابونة الحمام، وفرشاة الأسنان، ونقاط المياه التي تخرج من عطب المواسير، ويقف في وسط الصالة، يشم الهواء بعمق، قبل أن يلقي بالتحية على زوجته. وحين تمل هي من جنونه وتصرخ مطالبة بالطلاق، يشدها من رقبتها وهو يزجر: لن أطلقك لتذهبى إليه..

كانت زوجتي في الشهر الثالث أو الرابع من حملها، لا أدري، حين أصبت بذلك المرض. كان بطنها ضامراً كأنه بطن عذراء، وقد أخبرني بأن الباريسيات كلَّهن هكذا، يحملن ويلدن، ولا بطن مكور على الإطلاق، كانت فتنتها قد زادت بشكل لا يمكن تصوره. وأجمل مئة مرة من ذلك اليوم الذي عرفتها فيه، والذي شهد عقد قراننا. والذي صحبتها خلاله في الحي، والمدينة كلَّها، حين أعلننا الزواج رسمياً.

أول مرة شعرت فيها بأعراض مرض الغيرة، كانت في كريزي كافيه، وكانت لوحة المفاتيح في الكمبيوتر الذي تعمل عليه كاتياً، يابسة ولا تضخ الحروف بكفاءة، حين استدعيت عبد الله جني لاستطلاع الأمر. ترك درسه لعدد من المبتدئين، وأقبل مسرعاً، وليؤكد على كفاءة لوحته، أمسك بأصبع من أصابع زوجتي، ضغط به على اللوحة، وهويلع ريقه، ويقول.. هكذا.. بقوة.. هكذا.. أمسك بأصبع ثان، وثالث حتى امتلك اليد الحريرية كلَّها لعدة ثوان. أحسست تلك اللحظة بقلبي يلتهب، وطعم حامض يخنرق حلقي، كويت جني بنظرة مؤلمة، وأمسكت بزوجتي، أنهضتها عنوة لآخذها إلى البيت، وبريدها مفتوح عند رسالة من أمها، لا بد ممتلئة بالود والمشاعر. كانت غاضبة بشدة وصامتة، ورفضت حتى السماح لي بتمرير يدي على بطنها لأتحسس الطفل، أو تناول حبوب الحديد وحامض الفوليك، التي وصفها لها الدكتور أحمد، ابن اللورد سيف، حين أخذها مرة إلى عيادته.. ساعتهما كان حرياً أن أعتذر، أن أبرر سلوكي، ولم يكن في الحقيقة أي تبرير. أعدتها مرة أخرى إلى كريزي كافيه، لتكمل رسالة أمها، ووجدت نفسي من دون وعي أرباط عند باب الغرفة

الرجاجية لجني الذي كان مرتعباً، يطرفع أصابعه ويدخن السجائر،
بلا توقف.

المرة الثانية التي أكدت لي إصابتي الحتمية بالمرض، وجعلتني
أستسلم، وأسمح له بالانتشار عميقاً في داخلي، كانت عند منعم
شمعة في محله كريمان. كان منعم موجوداً في تلك الأيام، وجاء بيبي
لتهنئتي عند سماعه بخبر إعلان الزواج. كنا بحاجة إلى لوحة زيتية
نضعها في واجهة صالة البيت، كما أشارت كاتيا، وكان محل
كريمان ممثلاً بمثل تلك اللوحات التي يجلبها شمعة معه حين يجلب
بضائع الصين المقلدة، وبييعها في الحي باعتبارها بضائع أصلية، ولكن
برخص التراب. وجدناه وقد عاد إلى التدخين، سيجارة مشتعلة
وسيجارة تسعى للاشتعال، ورأس سيجارة يبرز من العلبة في انتظار
دوره. قال إن خطيبته الجديدة تنازلت عن رأيها السيئ في المدخنين،
وسمحت له بالعودة إليه. سألناه عن لوحة فيها خيول بنية تتسكع
بجوار نهر رقرق، بينما عدد من الطيور الملونة تمد مناقيرها إلى النهر،
تشرب. أوقد سيجارته الجديدة بعد أن احترقت القديمة، ونادانا إلى
مخزن داخلي، حيث توجد البضائع التي يسميها بضائع الطلب، ولا
يعرضها على واجهة محله أبداً. كانت عشرات اللوحات موجودة،
بعضها مغلف، وبعضها مكشوف وقد اتسخ بالغبار، انخنت كاتيا
على الأرض لتستكشف لوحة تشبه ما طلبته، وأراد شمعة الخروج
لتلبية نداء في المحل، ورأيته يحتك بجسدها المنحني، وهو خارج،
وكأنني لمحت بريقاً مجرمًا يظهر فجأة في عينيه. لا أعرف بالتحديد
ماذا حدث لي، لكنني تشنجت كطائر ذبيح، أمسكت باللوحة المعنية
ومزقتها، وركضت إلى شمعة، حيث كان يعرض فانوساً يصدر
موسيقى، وأضواء لامرأة برفقتها طفل. انتزعت الفانوس من يده

والقيته على الأرض، شدته من قميصه، وصفعته على وجهه، وأنا
أصرخ بانفعال:

- يا سافل.. لو فعلت ذلك مرة أخرى مع زوجتي..
سأقتلك.

كنا نبتعد أنا وكاتيا، وأسمع شمعة يردد بلا توقف..

- يا لطيف.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا
بالله.

أغلقت باب البيت علينا بالمزلاج الذي لم يستخدم منذ فترة
طويلة، وصبت عليه الزيت، حتى يعمل. ذهبت إلى الحمام وتقيأت
سائلاً أصفر، وعدت لأجد كاتيا تبكي، وأشاهد دموعها لأول مرة.
كانت فاتنة بلا شك، فاتنة وهي تلقي شعرها الأشقر إلى الخلف،
وترفع يدها الرقيقة لتمسح الدمع، لم يكن في نيتي الاعتذار هذه
المرة، بل وأكثر من ذلك، وجدت ذاكرتي تتضخم، تستعيد مواقف
كثيرة حدثت في الحي أو وسط المدينة، كان فيها تحرش واضح لم
أنتبه إليه في ذلك الوقت، وأنتبه الآن فقط. بدأت أستعرض تلك
المواقف موقفاً موقفاً، وأنا أتشظى بلهب جامح حرق حتى أمعائي،
وحاسة الشم والتذوق. اكتشفت أن عركي صاحب البقالة، كان
يتضاحك أمامها بلا مناسبة وبريق الاشتاء ينط من عينيه، ودون
مرة اسم كاتيا الملاك، على دفتره، متجاهلاً اسمي الذي يتعامل معه
منذ أن افتتح دكانه لأول مرة، ومؤكد أن تسميته لطفلة الوليدة
باسمها لم يكن من أجل إكرامها ضيفة، ولكن واحدة يشتهيها ويود
الاحتفاظ باسمها حاضراً في بيته. اكتشفت أن أيمن داوود الحضاري،
كان يطيل النظر إلى صدرها الناهد، في كل مرة نجده فيها في
الكريزي كافيه، ولا بد أنه جاء إلى بيتي في غيابي، لينفرد بها،

لأنني شممت عطره الماكسي عالقاً بهواء البيت أكثر من مرة، ووجدت ورقة من أوراق الإنترنت، فيها أخبار تخصها، ولا أذكر أنها استخرجتها في حضوري. اكتشفت أن سوكارنو، ابن النبي المتبقي في الحي، بعد أن هاجر أخوه، ظهرت في وسط ثيابه بقع متسخة، لم تكن موجودة قبل ظهور كاتيا ولا بد أنها كانت محرك أحلامه، الدكتور أحمد سيف، ابن اللورد سيف، كان يطيل كشفه الطبي أكثر من اللازم، حين أخذها إليه في عيادته لمتابعة حملها وينقر عدة مرات على بطنها، وأنفاسه متلاحقة. العمدة صاحب الحلال الذي كان موجوداً في بيت المرضعة، ساعة أن ذهبنا إليه، لم يكن يمص عظم الدجاج في براءة، ولكن بتعمد الإثارة. عثرت على نظرات الغزل والهيام، عند غباشي الجزار، والمشرّد كنكل ساكن الشوارع، والأمني موسى خاطر، والدسوقي صاحب كشك الأغنيات المسروقة، وحتى عند باعة الثلج وعصير الليمون، وشرطي المرور عوض الله كوة، حين كنا نعبر بقربه في سيارة للأجرة، ولا بد أن عائلة الجن آل مسيكة شاركوا في الإثم أيضاً، لأن فستانها ارتفع مرة عالياً، ولم تكن ثمة ريح ترفع الفساتين. اكتشفت كل هذا وكان من الممكن أن أكتشف أكثر، لو استجبت لذاكرتي المعدة جيداً، المدربة على كل صغيرة، وكبيرة، والتي كانت مرجعاً لأهل الحي، يدقون بابها كلما أرادوا أن يتذكروا. وفي لحظة من لحظات العمى والصمم، نهضت واقفاً لأعيد ذلك المشهد القديم للشريط السينمائي المصري الذي أنتج في ستينيات القرن الماضي. دخلت إلى غرفة النوم أولاً، أخرجت ثياب كاتيا الزرقاء من الخزانة، بعثرتها أمامي، وأخذت أشمها ثوباً ثوباً.. ذهبت إلى الحمام، شممت إصبع المعجون وفرشاة الأسنان، وصابونة الزست الموضوعة هناك، وحتى

عطر الكولونيا وشامبو البانتين لعلّي أعثر على أثر.. وقفت في وسط الصالة، وكاتيا ما تزال تبكي، شمتت الهواء برعونة، واستخرجت منه روائح لعطور مثل ماكسي، وجست كول، وون مان شو، وارتعدت. لست رجلاً حقيقة، وبيتي منتهك بالبذاءة، لكن سيعرف الجميع بمن فيهم كاتيا، من هو علي جرجار، من هو الغافل الذي استيقظ فجأة. صحت في وجهها أن تسكت، وتلتئم في البيت ولا تغادره حتى تضع الحمل، صحت فيها مرة أخرى أن لا تفتح الباب في غيابي، حتى لو انخلعت مفاصله. وسأكون كريماً حين أذهب وحدي إلى السوق أحلب لها ما تحتاجه، وأحضر لها بريدها الإلكتروني مطبوعاً من الكريزي كافيه بعد أن أعثر علي مترجم، يترجم لي كل كلمة فيه.. هل هذا واضح؟

لم ترد، وأحسست أن اللوحة المكتوب فيها، "علي وكاتيا إلى الأبد"، والمعلقة أعلى رأسها تماماً، تتأرجح لكنني لم أهتم. اتجهت إلى المطبخ، بعثرت جميع السكاكين التي فيه أمامي، واخترت أسننها شفرة، وضعتها في جيبي، اتجهت إلى غرفة النوم، حيث توجد عصا من خشب الأبنوس، كانت فيما مضى تخص أبي، واحتفظت بها كذكرى، أمسكتها بقوة وتأكدت من صلابتها.. كنت أسمع كاتيا تصيح خلفي أن أعود، عد أرجوك.. من أجلي.. علي وكاتيا.. لكن لم تكن لدي نية للعودة قطعاً.

وقفت أمام عركي صاحب البقالة، وأنا أستعر، كان عنده رجل مسن، يسأل عن صبغة ييجون الرخيصة ليفاجئ بها امرأته، حين يعود شاباً، أزحته جانباً بلا رحمة، وأخرجت سكينتي، ورأيت رعباً في عيني البقال، لم أره أبداً في عيني أحد من قبل، لوّحت بالسكين في وجهه، فتفادها، وهويت على رأسه بالعصا ليخرج

الوجع والدم. عثرت على المشرد كنكل ساكن الشوارع رابضاً في إحدى الحفر يعبث بهاتفه المحمول، انتزعته من الحفرة، جرحته في ساقيه بالسكين، وحطمت هاتفه، انطلقت في الشوارع، وسكنتي حمراء يقطر منها الشر والدم كنت أبحث عن أيمن الحضاري ولم أجده وأبحث عن سوكارنو النبوي ولم أجده، ورأيت الحي فائراً عن آخره، بعضهم يهربون من وجهي، وبعضهم يحاولون قهقري أو الإمساك بي. رأيت شمعة بلا سيجارة يقترب وابتعد، وحليمة المرضعة مكشوفة الرأس.. تصرخ: من أجل طفلك يا جرجار.. من أجل كاتيا العسل يا علي. رأيت سلافة الجميلة، خذاها متورمان، ووجهها بلا زينة مبهرجة، خيلاً يشبه حكيم النبوي، يتكئ على عكازتين مشققتين، يقرأ قصيدة تافهة اسمها كاتيا الملاك ونمل أسود يخرج من حلقه، ومتأنقاً يشبه الحكومي مبروك خضر يمسك بامرأة إثيوبية من يدها، ويضحك في شماته، ومقعداً متحرراً يخرج منه صوت كبير.. لن تنال المجد. ومرت حافلة فيها ركاب يتصايحون، ويصفرون، ويقذفوني بقشر المانجو والبرتقال، وأقسم أنني رأيت بينهم شيخ العواني، وتلميذة ساحل العاج صاحبة الرمد والأنيميا، وميخا ميخائيل يضع فمه على خد مندوب هجرة لوكسمبورج.. كانت ركبتاي تؤلماني بشدة، عقلي يؤلمني أيضاً، وسكنتي مسنونة في كل وجه، وحين استطعت في النهاية أن أمسك بواحد من عائلة الجن، آل مسيكة، وأذبحه أمام الناس، ارتج الحي كله في صوت واحد:

لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

ركضت إلى البيت، والصراخ خلفي، فتحت الباب والصراخ في قلبي وقلبي، وعيني. كانت كاتيا مهدمة، وقد تلاشت فتنتها تماماً،

وبدا وجهها نظيفاً من أي علامات إغراء، لم تقاوم حين أمسكتها من
كتفيها، وحين ألقيت بجسدها على الأرض، وحين غرست سكينتي في
موضع طري، لم يكن إلا أحشاءها..

-16-

كنت في سيارة مكشوفة لونها أحمر داكن، وقد رسم علي جانبها شعار ما. يداي مقيدتان إلى هيكلها بسلاسل من حديد، وجسدي في قمة تهيج، يناضل، ويناضل، ولكن لا شيء سوى الألم والدم. بجواري الأمني موسى وعشرات آخرون يشبهونه، ويحملون الأسلحة، وأجهزة اللاسلكي التي كانت تنطق بشفرة عن هطول المطر أخيراً، وعودة الخضراوات إلى السوق، وسقوط فرعون في قبضة موسى. كان حي غائب ممتلئاً بالفوضى، والتساؤل. رأيت لافتات محلات البيع كلها تسقط، وترتفع مكانها لافتات أخرى.. بقالة كاتيا.. ملحمة كاتيا.. مغسلة كاتيا.. إيجار الدراجات.. كاتيا.. خياط الفساتين، كاتيا، وحين عبرنا بجوار بيت حليلة المرضعة، شاهدت زينة من الورد والفوانيس الخضراء معلقة عليه، وسيارة حكومية سوداء تقف فجأة ويهبط منها رجل طويل نصف وجهه مشوه، يرتدي الثوب والعمامة، وبرفته فتاة أوروبية شقراء، ترتدي فستاناً أزرق، ولم أستطع تأملها جيداً، لأن عينيّ أظلمتا، وسقط رأسي على كتف الأمني موسى خاطر.